جمال البنا

تعميـق حاسـة العمــل في المجتمع الإسلامي

الطبعة الثانية 2004

المحتويات

مقدمة الطبعة الثانية

كُتب "تعميق حاسة العمل فى المجتمع الإسلامى" عام 1985 وصدر باسم الاتحاد الإسلامى الدولى للعمل الذى كان قد عقد مؤتمره التأسيسى فى جنيف عام 1981. من أجل هذا فإن القارئ يجد إشارات إلى عالم الثمانينات الذى قد لا يلم به من لم يعايشه، وقد أوردنا فى بعض فصوله تسجيلات من كتابات نشرت وقتئذ وطواها النسيان، وهذه الإشارات والتسجيلات تعيد إلى الحياة مفاهيم وإحداث وتعرف أبناء القرن الواحد والعشرين ببعض ما كان يحدث منذ عشرين عاما. كما أن صدوره عن الاتحاد الإسلامى الدولى للعمل يعرف القارئ بهيئة كان ينتظر أن تكون من أعظم الهيئات تأثيراً فى المجتمع العربى والإسلامى لولاً أنها جاءت قبل وقتها إذ تضافرت كل القوى لمعارضتها. وكانت المنظمات النقابية التى انضمت إليه من منظمات المعارضة المفلسة، الملاحقة، فلم تستطيع أن تساعد الاتحاد الناشئ إذ كانت هى نفسها أحوج إلى المساعدة، أما النقابات الأخرى فقد ارتبطت بالنظم الحاكمة وسارت فى أذيالها، وبالطبع فإنها كانت تقاومه.. ومن هنا فلم يحقق الاتحاد ما عقد عليه من الآمال. وإن كان قد دفعنا إلى المعالجة النظرية لعلاقات العمل من وجهة نظر إسلامية. وقدم الاتحاد تنظيراً جديداً لهذه العلاقات يقف ما بين الرأسمالية المقاومة للنقابات والاشتراكية المستلحقه للنقابات. وكان هذا الكتاب إحدى ثمراته. ونأمل أن تأتى ساعة الاتحاد عندما تسنح الظروف الملائمة، وعندئذ فسيكون له شأن عظيم..

وعندما صدر الكتاب عام 1985 كان فى 144 صفحة من القطع الصغير وكان مطبوعاً على ورق "ستانيه" وله غلاف متواضع. ومع هذا فقد أثار الإعجاب، حتى نفدت نسخه بعد مرور أكثر من عشرين عاماً وشغلنا عنه بكتابات ما يكاد ينتهى أحدها حتى يبدأ الثانى حتى وقعت عليه نظر الأستاذة منى عبد الله، وهى سيدة مارونية بالميلاد، مصرية بالجنسية، صعيدية بالزواج. وكان من حسن الحظ أن تعرفت عليها أيام "الفتنة الطائفية" إذ نشرت بعض المقالات فى جريدة "الشعب" الواسعة الانتشار لفتت انتباهها عندما كانت بصدد كتابة بحث بالفرنسية عن هذا الموضوع فاتصلت بى، ثم تعارفنا فى أحد اجتماعات حزب العمل ومن هذه اللحظة تعاونت معى السيدة منى قلبا وقالبا، وقامت بإعداد "كتالوج" القسم الإنجليزى بالمكتبة بدءاً من تصنيف الكتب وكتابة "البطاقة" على كعبها ثم كتابة الكتالوج بالإنجليزية على الكومبيوتر. وكانت تأتى ثلاث مرات فى الأسبوع لإنجاز هذا العمل رغم مشاغلها الجمة..

كما أصدرت بالفرنسية كتابا عن جمال البنا وتطور حياته ونشاطه الثقافى، بالإضافة إلى تلخيص واف لكتاب "نحو فقه جديد" بأجزائه الثلاثة.

إنها وزوجها الدكتور محجوب عمر يمثلان العطاء الخالص.. العطاء بلا حدود...

أعجبت السـيدة مـنى عبـد اللـه بالكتـاب، وأشـرفت على كتابتـه على الكومـبيوتر بنفسها، وشجعتنى على إصداره فى ثوب قشيب..

وهكذا صدرت هذه الطبعة باسم "دعوة الإحياء الإسلامى" الـتى تنـوب عن الاتحـاد الإسلامى الدولى للعمل فى حمل رايته حتى تحين لحظته.

والله تعالى اسأل أن يفيد به، وأن يسد نقصاً فى المكتبة العربية والإسلامية...

وأن يوجه الأنظار لما يجب أن تكون عليه "حاسة العمل فى المجتمع الإسلامى"..

القاهرة فى : مايـــو 2004 / ربيع الأول 1425

جمال البنا

إهداء الطبعة الثانية

إلى العزيزة السيدة منى عبد الله

الشمعة التى لا تطفئ نورها الرياح...

والتى أعجبت بهذا الكتـاب، وأشـرفت على كتابته بالكمبيوتر، وشجعتنى لإصداره..

فإذا أهديت إليها هذه الطبعة فهذا حقها..

جمال البنا

مقدّمة الطبعة الأولى

قد لا نستطيع أن نصل إلى رشاقة التعبير وبراعة التصوير الذي وصل إليه شاعرنا الكبير "شوقي" عندما قال :

انظر الكون وقل في وصفه — كل هذا أصله من أبوين

فقدا الجنة في ايجادنا — ونعمنا منهما في جنتين

ومع هذا فلن نخالف جادة الصواب إذا نظرنا إلى هذا الكون وما يحفل به من بيوت ومصانع وطرق وحدائق ومستشفيات ومساجد ومكتبات ومعاهد وإلى الأنوار التي تشق الظلمات.. **والسفن الماخرات البحر كالأعلام والقطارات والطائرات وقلنا "كل هذا أصله من العمل"..**

نعم إن **العمل**، والعمل الدائب المستمر هو الذي أقام البيوت وشق الطرق وأحال الصحارى القاحلة إلى مدن آهلة ووضع وسائل الانتقال والاتصال من العجلة البدائية إلى الطائرات والكومبيوتر والتليفزيون.. وهو الذي يوفر يوما بعد يوم للملايين من الناس مأكلهم ومشربهم وما يحتاجون إليه في حلهم وترحالهم عملهم ولهوهم..

إن المجتمع الحديث يختلف اختلافا جذريا عن المجتمع القديم البسيط المحدود الاحتياجات، فالثورة الصناعية لم تكن صناعية فحسب وإنما كانت ثورة في حياة الشعوب والجماهير وطرق معيشتها من يقظة الصباح حتى رقدة المساء. و"تمحورت" هذه الثورة حول العمل والصناعة والإنتاج وسارت يدا بيد العلم مع العمل.. وخاضت أوروبا معركة طويلة صعبة من منتصف القرن الثامن عشر حتى الآن لتوجد هذا المجتمع الحديث وتضع وسائل وطرق ونظم وسياق وأسرار العمل التي يقوم عليها هذا المجتمع وتحقق له الكفاية. ومن المحتمل أنها أخطأت ولكن المأخذ في تجربتها جاء على نقيض كل تجارب البشرية السابقة، أنها أنتجت أكثر وأن الوفرة وليست الندرة أصبحت المشكلة وتلك قضية التوزيع وليست قضية الإنتاج وهي - بعد - توضح مدى مقدرة "العمل" الحديث.

هذه هي يد العمل الساحرة والمبدعة وأثرها في إيجاد المجتمع الأوروبي وتقديم النمط الحديث للحياة فإذا انتقلنا إلى المجتمعات الإسلامية، فسنرى من النظرة الأولى أن من أكبر العوامل التي تؤدي إلى تخلف هذه المجتمعات **انحطاط مستويات العمل وضحالة درجات المهارة وسوء المعاملة وعدم ملاحظة ما ينبغي للأداء من دقة وعناية والعجز عن ملاحقة السياق الحثيث الذي تتطلبه الصناعة وما إلى هذا كله مما يلمسه كل واحد تقريبا كل يوم..** مما كان له أسوأ الآثار، لأن العصر الحديث يتطلب مستوى رفيعا من الفنية والتخصص وإحكام العمل والعلم بأسراره ودقائقه والتوصل إلى أعماقه وتوفر حاسة

التوقيت والسرعة التي هي سمة العصر وطابع سياقه والـتي تجعل للثـواني فضلا عن الدقائق أهمية وتقديرا.. مع القـدرة على اسـتخدام ما توصل إليه العصر من معينـات ومعدات ووسـائل فائقة الفنية وقائمة على النظريـات العلمية والأسـاليب التكنولوجية من كومــبيوتر وحاســبات آليــة.. الخ. ولا يغــني عن هــذا كله المعرفة الســطحية أو "الفهلوة" أو الاجتهاد دون القاعدة العلمية والممارسات الفنية.

وأدى تخلف المجتمعات الإسلامية في هذا المضمار وما يتضمنه من إنتاج وصــناعة ومهن وخـدمات إلى ضـعفها واسـتكانتها أمـام الـدول الأخـرى وعجزها عن معايشة العصر معايشة إيجابية أو اســتخدام آلاته ومعداته الــتي أصـبحت نوعا من لغة العصر فكأنها أصبحت عجماء وسط المتكلمين، عالة بين المستقلين، ورضـيت أن تكـون من الخوالف ولجـأت الـدول الغنية نسـبيا منها إلى اسـتيراد كل شئ من الـدول الأوروبية وأذعنت راغمة لـدفع الأثمـان الباهظة الـتي تطلبها والـنزول على شـروطها المجحفة التي تذل كرامتها وتستنزف ثروتها ثم لا تأمن بعد هذا كله على استقلالها أو سلامتها.

حـتى الزراعة الـتي هي الحرفة التقليدية في المجتمعـات الإسـلامية والـتي كـانت تكفل لأهلها الغذاء وتصدير جزء كبـير من الحاصـلات زحف عليها التخلف ولم تسـتطع أن تساير التقدم الذي جعل من الزراعة (كما جعل من كل شئ تقريبا) علما وصــناعة ووصل التدهور والعوز والتخلف بهذه المجتمعـات أن أصـبحت تسـتورد رغيف عيشـها ومادة قوتها من الدول المتقدمة وأصبح القمح سـلاحا تشـهره أمريكا في وجـوه هـذه الدول.

ولهـذا التخلف في مجـال العمل والصــناعة والمهـارات أسـباب عديـدة اجتماعية واقتصادية وسياسية. ولكن من الأسباب الـتي لم تظفر بالاهتمـام أو تتوجه إليها عناية البـاحثين أن العمل قد حُـرِمَ دفع ومسـاندة القِيَم الإسـلامية وتجـرد من طابعه ودوره الإسلامي ففقد بهذا أكبر وازع يصلح الخلل ويستدرك القصور ويكـون قـوة دافعة نحو استكمال ما ينقصنا واستدراك ما يفوتنا.

ولعل من أدلة هذا الإغفال أننا لا نرى اهتمامـا من الهيئـات الإسـلامية ومن الـدعاة الإســلاميين بهــذا المجــال ولا نــرى في المكتبة الإســلامية ما يتناسب مع أهميته من الكتب والرسائل ولا نجد في الهيئات الإسـلامية عناية بـه. وقد كـاد الإسـلام أن يصـبح مجموعة من شــعائر العبــادة وأن يقتصر على أداء الطقــوس والفــرائض الدينية من صـلاة أو صـيام أو حج. وحـول هـذه الموضـوعات وحـدها تـدور الاهتمامـات وتـتركز المؤلفات واصبح الناس لا يعلمون من وسيلة للتقرب إلى الله إلا العبـادات من صـلاة أو صـــيام أو حج ولا يخطر في بـــالهم أن إتقـــان العمل وإحســـان المعاملة وإدراك المهارات الحديثة في الصناعة التي تحقق العـزة والكرامة للمسـلمين تماثل الشـعائر وتعد في الإسلام شقائقها ويثيب الله عليها مثل ما يثيب على الصلاة والصيام.

وكـان لهـذا الفهم الضـيق آثـار سـيئة إذ حـرم العمل من دفع أعظم المقومـات وأعمقها تغلغلا في شخصية المسـلمين وأكثرها تـأثيرا عليها ألا وهو الإسـلام وقد أثـار انتباهي ما قرأته في يوم ما في جريدة الأهرام[1] من أن أحد النوادي قـرر صـنع عـدد من اليافطـات الصـغيرة تحمل الأثر (إن الله يحب إذا عمل أحـدكم عملا أن يتقنـه) واتفق مع أحد الصناع على ذلك ولكن الصانع أخذ يماطل ويسوف يوما بعد يـوم حـتى قال مندوب النادي إن هذه اليافطة تحمل حديثا شريفا يحث على الإتقان فتنبه الصانع الـذي لم يكن قد ألقى بـالا إلى ما أريد كتابته على اليافطـات ووعد منـدوب النـادي بانتهـاء العمل في اليـوم التـالي ولما مر منـدوب النـادي وجد اليافطـات جميعا على أحسن حـال وأفضل مما طلبه واعتـذر الصـانع بحـرارة عن تقصـيره لأنه لم يلحظ الحديث وقال "أنا بصراحة لما قريت الحديث الشريف ده تأثرت جدا".

وقد كان قيام "الاتحاد الإسلامي الدولي للعمـل" أول خطـوة عملية وتنظيمية لسد تلك الفجوة التي فصلت ما بين الإسلام والعمل وأبرز الاتحاد – في عدد من رسائله – العلاقة الوثيقة التي تربط عالم العمل بالإسـلام بل أثبت أن "النقابـات" ليست طارئة على المجتمع الإسـلامي فقد كـانت موجـودة بل ونقلتها أوروبا عنه كما أن الأهـداف التي تدعو إليها النقابات هي نفسها الأهداف التي يدعو إليها الإسلام.

وقد عنى الاتحاد بادي ذي بدء بعلاقات العمل وضرورة تسويتها على أساس العـدل الإسلامي ليمكن حسم شأفة الخلافات ما بين العمال وأصـحاب الأعمـال من إضـراب أو إغلاق وتحقيق السلام الاجتماعي والاستقرار الذي يمكن العمـال من العمل للنهضة ببلادهم وتحقيق خطط تنميتها مع نيلهم – في الوقت نفسه – حقوقهم المشروعة.

واليـوم يعـني الاتحـاد بجـانب آخر من قضـية العمل هو "تعميق حاسة العمـل" في المجتمع الإسلامي وإبراز الأهمية القصوى للعمل ودوره في حياة الفرد والمجتمع وأن الموقف الـذي يتفق مع الإسـلام ليس هو الانعـزال أو السـلبية ولكن المشـاركة في الحيـاة النشـطة الزاخـرة الـتي تمـوج بها جنبـات المجتمع الحـديث من علـوم وفنـون وصناعات ومهـارات، وضـرورة تصـحيح نظـرة المسـلمين إلى العمل طبقا لتوجيهـات الإسلام من تفان وإخلاص وإتقان واعتبار الحياة الدنيا بأسرها معركة في سبيل العمل الصالح.

وهنـاك اقـتراح بـأن ينص دسـتور الاتحـاد على أن من أهدافه "تعميق حاسة العمل في المجتمع الإسـلامي" إذ العمل مصـداق الإيمـان في الحيـاة الـدنيا ومعيـار الثـواب والعقاب في الحياة الآخرة ووسيلة القـوة والعـزة للـدول الإسـلامية الـتي تخلفت عن التقدم الحديث في مجالات العمل والخدمات والمهارات".

وسيعرض هذا الاقتراح على أول مؤتمر من مؤتمرات الاتحاد لإقراره.

إن تعميق حاسة العمل في المجتمع الإسـلامي يعـني بالنسـبة للاتحـاد الإسـلامي الدولي للعمل شيئا أعظم بمراحل مما يتصور الناس...

---

[1] **(1) الأهـرام العـدد الصـادر فى 30/12/1980 ص7 "أن يتقنـه.." للأسـتاذ صـلاح منتصر.**

فبعد القضية الأولى والرئيسية التي تجابه المجتمع الإسلامي، قضــية حسن فهم الإسلام التي تحل لنا مشكلة "النظرية" والمسألة الحضــارية والمعنوية ويمكن أن نرمز لها بالإيمان تأتي مباشرة قضـية العمل الـتي تحل لنا مشكلة التخلف والضـعف والمهانة ويمكن أن نرمز لها بالجهـاد. فـاليوم يكـون العمل لإدراك العلـوم والفنـون ونيل المهـارات في الصـناعة والزراعة والخــدمات واســتدراك التخلف الاقتصــادي والاجتمــاعي ووضع هــذا كله في خدمة الإسلام والمسلمين ولإعلاء كلمة الله هو الجهاد حقا ويصبح أقرب التطبيقات للمعيــار الذي وضعه الرسول عندما سئل عن الجهاد في سبيل الله فقـال "من جاهد لتكـون كلمة الله هي العليا فهو في سـبيل اللـه". كما أنه التصـديق الـواقعي للجمع القـرآني المتوالي بين الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ.

القاهرة فى: شعبان 1405 / مايـو 1985

جمال البنا

الفصل الأول
مكانة العمل في الإسلام
"مصداق الإيمان ومعيار الثواب والعقاب"

توضح مراجعة القرآن الكريم أن "**العمل**" يظفر بمكانة رفيعة وأهمية بارزة بين أسس وقيم ومبادئ الإسلام. وإذا كانت هذه الحقيقة غير مشهورة أو شائعة بين الناس، فإن هذا هو ذنب الشراح والمفسرين الذين لم يتجاوبوا تماما مع لفتات القرآن، ومروا مرورا عابرا على آياته العديدة عن العمل، ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾.

ومن دلائل الاهتمام بأمر أن يتكرر ذكره، وأن تتعدد اشتقاقاته، وإذا رجعنا إلى القرآن فإننا نجد أن كلمة "**العمل**" تعد من أكثر الكلمات ورودا، وأن القرآن قد ذكرها مرارا وتكرارا، واستخدم مشتقاتها العديدة فيما وضعت له فأشار إلى **عمل** (**19** مرة) و**عملوا** (**73** مرة) و**تعملون** (**83** مرة) و**يعملون** (**56** مرة) و**أعمالهم** (**27** مرة) و**يعمل** (**14** مرة) فضلا عن بقية المشتقات التي ذكرت مرات أقل مثل **عملت** – **أعمل** – **يعمل** – **عملا** – **عملكم** – **أعمالكم** – **أعمالنا** – **عامل** – **عاملون** – **عاملين**.. ويصل مجموع هذه الإشارات إلى ما يقارب **330** مرة.

وبالإضافة إلى هذه الإشارات إلى كلمة **"العمل"** ومشتقاتها على وجه التعيين فهناك إشارات أخرى عديدة إلى "مضمون" العمل مما يدخل في مترادفات كلمة العمل مثل "فعل" ويفعلون و"صنع" و"يصنعون" ومثل الأمر بالسير وأكل الطيبات واستباق الخيرات ألخ.. مما يكاد يضاعف الرقم السابق.

ولإيضاح دلالة هذا الرقم نقول إن الإشارات إلى الصلاة ومشتقاتها في القرآن الكريم تقارب المائة وفي أغلبية الإشارات ذكرت الصلاة مقرونة بالزكاة ومعنى هذا أن إشارات القرآن الكريم إلى العمل هي أضعاف إشاراته إلى الصلاة.

قد يقال إن العنصر الهام ليس هو مجرد الذكر وعدد مرات الإشارة ولكن المضمون والمكانة وفحوى هذا الذكر، وهنا أيضا لا يخذلنا القرآن..

ذلك أن القرآن الكريم يذكر العمل **باعتباره مصداق الإيمان آونة، ومعيار الثواب والعقاب آونة أخرى، وقد يقدمه عند الذكر على التوحيد** ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ وقد يكتفي بالإشارة إليه ﴿وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وأوصى الرسل ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾. وليس بعد هذا كله غاية في عالم العقائد..

وفي القرآن الكريم ثنائيات تنم عن طبيعته الشـاملة والتكاملية ولا يمكن أن يخطئها كل من ألف قراءته فالليل يــذكر مع النهــار.. والشــمس مع القمــر، والســموات مع الأرض، والذين يقيمون الصلاة مع الذين يؤتون الزكاة... ومن أبـرز هـذه الثنائيـات في الدلالة فيما نحن بصدده أن القرآن عندما يتحدث عن ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فإنه يضـيف إليهم دائما ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وقد تكرر هذا في القرآن مرات تجاوز المائة عدا..

وهذا الربط المتواتر ما بين ﴿الَّذِينَ آمَنُـوا﴾ و﴿عَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ﴾ يوضح لنا أن الإيمـان إنما يكتمل بالعمل الصـالح. وإلا فلم يكن هنـاك مـبرر لـدوام الربــط، ودلالة هـذا الربط ومعنــاه هي ما ذكرنــاه من أن الإيمــان يكتمل بالعمل، ولو أنعم المسلمون النظر في هذه النقطة وتوصلوا إلى دلالتها لما كان هناك داع لكثير من القضايا الجدلية التي كـانت مثـاراً لمنازعـات حادة عن الإيمــان، وهل يقتصر على التصـديق أو لابد له من عمـل. وهل يزيد أو ينقص إلى آخر ما يـــرد في كتب العقائد وعلم الكلام. فالإيمـــان دون عمل يخــالف دون ريب توجيهــات القــرآن **الــتي تقــرن دائما وأبــدا الإيمان بالعمل.**

ويغلب أن تأخذ إشارات القرآن إلى المؤمنين صـورة من ثلاث صـور، فعنـدما يـذكر ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فإنه كما قلنا يقرن ذلك بتعبير ﴿وَعَمِلُوا الصَّـالِحَاتِ﴾ والآيـات الـتي جـاء فيها هذا القـرن أكـثر من أن تحصى في هـذا المـوجز، وعنـدما يتحـدث إلى المؤمـنين بصيغة الخطاب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فإنه يقرن ذلك بأحد التوجيهات العملية ﴿كُلُوا من الطيبات﴾، ﴿لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ﴾ ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾، ﴿أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾، ﴿اتَّقُـوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنْ الرِّبَا﴾، ﴿لا يَحِـــلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُـــوا النِّسَـــاءَ كَرْهًا﴾، إلى آخر هـــذه التوجيهات التي تتعلق بالسلوك أو المواقف التي يجب على المؤمنين وقوفها والالتزام بهـا. وأخـيرا فـإن القـرآن عنـدما يشـير إلى ﴿مَنْ آمَنَ﴾ فإنه يضـيف إلى ذلك ﴿وَعَمِـلَ صَـالِحًا﴾، ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَـوْمِ الآخِـرِ وَعَمِـلَ صَـالِحًا﴾، ﴿مَنْ آمَنَ وَأَصْـلَحَ﴾، وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾، ﴿إِلا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾.. الخ.

وفي بعض الحـالات لا يـذكر القـرآن العمل صـراحة ولكنه يعطي مضـمونه جنبا إلى جنب مختلف العبادات.. ففي سورة الجمعة ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلاةُ فَانتَشِـرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ"﴾، وفي سورة الحج ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَـالاً وَعَلَى كُلِّ ضَـامِرٍ يَـأْتِينَ مِنْ كُـلِّ فَجٍّ عَمِيـقٍ لِيَشْـهَدُوا مَنَـافِعَ لَهُمْ وَيَـذْكُرُوا اسْـمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾، ولم يأنف من أن يرمز إلى الإيمان بكلمة **تجـارة** ﴿هَـلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَـارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُـونَ بِاللَّهِ وَرَسُـولِهِ﴾، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُـونَ كِتَـابَ اللَّهِ وَأَقَـامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُـورَ﴾. وذكر جنبا إلى جنب الذين ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الذين ﴿يَضْـرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُـونَ مِنْ فَضْـلِ اللَّهِ﴾، ﴿عَلِمَ أَنْ سَـيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَـى وَآخَـرُونَ يَضْـرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُـونَ مِنْ فَضْـلِ اللَّهِ وَآخَـرُونَ يُقَـاتِلُونَ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ﴾، ﴿هُـوَ الَّذِي جَعَـلَ لَكُمْ الأَرْضَ ذَلُـولاً فَامْشُـوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾.

فهذه الإشارات كلها للجمع ما بين الصلاة والحج والمنـافع وابتغـاء فضل الله والرمز للإيمـان ومختلف قرباته بالتجـارة كلها توضح أن العمل بـالمعنى الاقتصـادي أي العمل المنتج اعتبر قرينا للإيمان ومصداقا له.

وهذا الجمع المتكرر والمتـواتر بين الإيمـان والعمل الصـالح يـوحي أن الإيمان في القرآن **يعد المدخل إلى عالم العقيـدة، و"الهويـة" للمؤمـنين. ولكن هذا المدخل والهوية لا يكفيـان وحـدهما بل لابد من العمل الصـالح الذي يؤكدهما ويصدقهما فليس الإيمان بالتمني ولكن بما يصدقه العمل.**

وهناك إشارات أخرى في القــرآن الكــريم عن العمل تؤكد **هذه الحقيقة لأنها لا تكتفي بجعل العمل مصـداق الإيمـان ولكنها تجعله المعيـار في الثـواب والعقاب فالمؤمنون لا يعفون بحكم إيمـانهم من الحسـاب، إن العمل هو الذي سيقرر ما إذا كان هؤلاء المؤمنون يثابون أو يعاقبون.**

والآيات عن ذلك عديدة..

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا **عَمِلَتْ** مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا **عَمِلَتْ** مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ **(30 آل عمران)**

﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ **تَعْمَلُونَ**﴾ **(129 الأعراف)**

﴿لِيَجْزِيَهُمْ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا **يَعْمَلُونَ**﴾ **(121 التوبة)**

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ **عَمَلاً**﴾ **(7 هود)**

﴿وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ **(111 النحل)**

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَعَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ **(92-93 الحجر)**

﴿مَنْ **عَمِلَ** سَيِّئَةً فَلا يُجْزَى إِلا مِثْلَهَا وَمَنْ **عَمِلَ** صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُـوَ مُـؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ **(40 غافر)**

﴿مَنْ **عَمِلَ** صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ **(46 فصلت)**

﴿مَنْ **عَمِلَ** صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ **(15 الجاثية)**

﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا **يَعْمَلُونَ**﴾ **(14 الأحقاف)**

﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ **عَمِلَ** صَالِحًا فَلأنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ **(44 الروم)**

وفي القــرآن الكــريم جـزء من آيـة، ثلاث كلمـات بعيـدة الدلالة والمغـزى تلك هي ﴿وَعَلَّمْنَـاهُ صَـنْعَةَ لَبُـوسٍ﴾ **(80 الأنبياء)** من هـذه الكلمـات الثلاث نعلم أن الحـديث صادر من الله تعالى.. فالله تعالى هو الـذي "عَلَّمَ" وأن الحـديث موجه إلى داود، رأس بني إسرائيل وفخرها وأن ما علّمه الله لداود هو صنعة الدروع. فأي تكريم للصنعة كما جاءت اللفظة القرآنية وهي نفسـها اللفظة السـارية بين العمـال اليـدويين.. أن يعلّمها

الله نفسه لداود نفسه.. كما تضمن الآية أيضا **أن العلم هو وسيلة الصنعة وليس شيئا آخر.**

وأبرز من هذا كله في الدلالة الآية ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُـوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَـنُ عَمَلاً﴾. **فلا شيء أصرح من هذا في أن الله تعالى جعل هذه الحيـاة الـدنيا امتحانا يدور حول العمل.**

* * *

ويتفق الحديث النبوي مع القرآن الكـريم في الجمع ما بين الإيمـان والعمل واعتبـار العمل مـبرر الثـواب والعقـاب. فالحـديث النبـوي عن أن الإيمـان بضع وسـبعون (وفي رواية وستون) شـعبة أعلاها لا إلـه إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريـق، يوضح لنا مـدى شـمول الإيمـان بـدءا من ذروة العقيـدة حـتى أدنى عمل من الأعمـال اليدويـة.. وهناك الحديث المشهور عن الشاب الجلد الذي تمنى الصحابة لو كان جلده في سبيل الله فصحح النبي ﷺ لهم هذا المفهوم "لو كان يسعى على أبوين شيخين فانه في سبيل الله أو يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل اللـه"، فسـبيل الله ليس مقصـورا على الصلاة والصيام.

واعتبر النبي ﷺ أن "أمـرك بـالمعروف ونهيك عن المنكر صـلاة وحملك عن الضـعيف صـلاة وإنحـاؤك الأذى عن الطريق صـلاة"، رواه ابن خزيمة في صـحيحه وتحـدث عن رجل "يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تـؤذي المسـلمين.." ويقابل هذا امـرأة "دخلت النـار في هـرة حبسـتها فلا هي أطعمتها ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض". وجاء في كتاب **"أدب الدنيا والدين"** للماوردي:

وقد قـال الله تعـالى لنبيه ﷺ ﴿فَـإِذَا فَـرَغْتَ فَانصَـبْ وَإِلَى رَبِّكَ فَـارْغَبْ﴾ قـال أهل التأويل فإذا فرغت من أمور الدنيا فانصب في عبادة ربك وليس هذا القـول منه ترغيبا لنبيه ﷺ فيها ولكن ندبه إلى أخذ البلغة منها. وعلى هذا المعـنى قـال ﷺ ليس خـيركم من ترك الدنيا للآخرة.. ولا الآخـرة للـدنيا ولكن خـيركم من أخذ من هـذه وهـذه وروى عن النبي ﷺ أنه قال "نعم المطية الدنيا فارتحلوها تبلغكم الآخرة" وذم رجل الدنيا عند علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه فقال رضي الله عنه الـدنيا دار صـدق لمن صـدقها ودار نجاة لمن فهم عنها ودار غنى لمن تزود منها." [2]

وعن أنس قال كنا مع النبي ﷺ في السفر فمنا الصائم ومنا المفطر فنزلنا مــنزلا في يوم حار فسقط الصوامون وقام المفطرون فضربوا الأبنية وسقوا الركاب فقال النـبي ﷺ ذهب المفطرون اليوم بالأجر كله.

وكما فضل النبي ﷺ هـؤلاء المفطـرين في السـفر على الصـائمين ورأى أنهم "ذهبـوا بالأجر" فقد فضل في حديث تعددت رواياته امرأة لا تؤدي إلا الفـرائض ولكنها تتصـدق ولا تؤذي جيرانها على امرأة أخرى كثيرة الصلاة والصيام ولكنها تؤذي جيرانها.

---

[2] **(2) طبعة وزارة المعارف العمومية 1928 ص111.**

وعن أبي قلابة أن ناسا من أصحاب النبي ﷺ قدموا يثنون على صاحب لهم خيرا قالوا ما رأينا مثل فلان قط ما كان يسير إلا كان في قراءة ولا نزلنا منزلا إلا كـان في صـلاة قال فمن يكفيه ضيعته ومن كان يعلف جمله أو دابته قالوا نحن قال فكلكم خـير منـه. وعن النـبي ﷺ أنه قـال ما من مسـلم يغـرس غرسا أو يـزرع زرعا فيأكل منه الطـير أو الإنســان إلا كــان له به صــدقة. وقــال "لو قــامت القيامة وفي يد أحــدكم فســيلة فليزرعها".

وعن عبد الله بن مســــعود قـــــال رســــول الله "طلب كسب الحلال فريضة بعد الفريضة".

وعن أبي هريـرة أن النـبي ﷺ قـال "المسـلم من سـلم المسـلمون من لسـانه ويـده والمؤمن من آمنه الناس على دمائهم وأموالهم وزاد البيهقي في شعب الإيمـان برواية فضــــــاله "والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله والمهـــــــاجر من هجر الخطايا والذنوب".

وعنه أنه قال "لا إيمان لمن لا أمانة لـه". وقـال "آية المنـافق ثلاث إذا حـدث كـذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم".

وعن أنس قال رسـول الله ﷺ "يتبع الميت ثلاثة فـيرجع اثنـان ويبقى واحد يتبعه أهله وماله وعمله فيرجع أهله وماله ويبقى عمله".

وكان النبي ﷺ يستعيذ من "علم لا ينفع" كما يسـتعيذ من "قلب لا يخشـع" ويقـول إذا أراد الله يقوم سوءا أوتوا الجدل ومنعوا العمل.. وكان الدعاء المأثور "اللهم علّمني ما ينفعني وانفعني بما علّمتني".

وحــديث المفلس يوضح لنا أهمية العمل في مقابل العبــادة وكيف أن العبادة لا تغني عنه، ونصه "أتدرون من المفلس قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع قال المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصـلاة وصـوم وزكـاة، وقد شـتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هـذا وضـرب هـذا، فيعطي هـذا من حسـناته، وهذا من حسناته، فإن فنت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار". رواه مسلم..

فهذه الأحـاديث كلها هي كالآيـات الـتي استشـهدنا بها من قبل تجمع ما بين الإيمـان والعمل توضح أنه حتى تعبيرات الصدقة والصلاة والإيمان والجهـاد والمسـلم والمـؤمن تتسع لصنوف من الأعمال مسـتقلة عن العبـادات قـدر ما هي متصـلة بممارسـات من صميم الحياة العملية واليومية للناس بل أن العبـادات نفسـها تحكم بهـذه الممارسـات والأعمال وتقاس بها حتى وإن شملت أدنى الأعمال وامتدت إلى الحيوان والجماد.

وقـال عمر بن الخطـاب رضي الله عنه "لأن أمـوت بين شـعبتى رحلى أضـرب في الأرض ابتغي من فضل الله أحب إلى من أن أقتل مجاهـدا في سـبيل اللـه" وقد ذكر هذه الرواية أحد الفقهاء والأساتذة في السعودية على أسـاس أنها تقـديم من عمر بن

الخطاب للكسب على الجهاد اسـتنادا على تقـديم القـرآن الـذين يضـربون في الأرض لكسب الرزق على المجاهدين في سـبيل الله ﴿وَآخَـرُونَ يَضْـرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُـونَ مِنْ فَضْــلِ اللَّهِ وَآخَــرُونَ يُقَــاتِلُونَ فِي سَــبِيلِ اللَّهِ﴾ (المزمل **2**). ونقل ما رآه بعض الفقهـاء من أن الجهـاد فـرض "وقد اقـترن بالضـرب في الأرض للاكتسـاب فيكـون الاكتسـاب فرضا بدلالة الاقـتران وتقديمه على القتـال يـدل على أولويتـه"[3]، ورأى الكاتب أن هذا لا يخرج عما أراده عمر من قوله واسـتطرد "والحقيقة أنه لـولا الكسب لما قام الجهاد في سبيل الله، لأن المال عصب القتال، ومن هنا جـاءت أهمية الإعـداد الاقتصادي والاقتصاد الحربي لتمويل الحروب، خاصة في العصر الحاضـر، إذ المـال هو الوقود الحقيقي للحروب حيث تصمد الدولة في القتال ما قويت على تمويل حربها."[4]

وقد يذكر في هذا الصدد أن القرآن الكريم عندما يذكر الذين ﴿يُجَاهِـدُونَ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ﴾ فإنه دائما يذكر الذين يجاهدون ﴿بِأَمْوَالِهِمْ﴾ أولا ثم بـ﴿أَنفُسِهِمْ﴾ ثانيا.

كما قد يذكر أن حـرص عمر بن الخطـاب رضي الله على صـحبة الرسـول وتقـديره لأهمية ذلك، لم يمنعه من "الصفق في الأسواق" وعندما أعلم بحديث لم يسمعه قــال "ألهـاني عنه الصـفق في الأسـواق". ولعمر رضي الله عنه أقـوال أخـرى معروفة في الحث على العمل فهو الذي قـال لأنـاس وجـدهم في المسـجد تـاركين العمل "لا يقعد أحدكم عن طلب الـرزق ويقـول "اللهم ارزقـني" فقد علمتم أن السـماء لا تمطر ذهبا ولا فضة" وقال "اني لأرى الرجل فيعجبـني فـأقول أله حرفة فـإن قـالوا لا سـقط من عيني". وقد كان هو الذي عنـدما مر بقـوم من القـراء فـرآهم جلوسا في المسـجد قد نكسوا رؤوسهم فقال من هؤلاء فقيل المتوكلون فقال كلا ولكنهم المتـأكلون، يـأكلون أموال الناس ألا أنـبئكم من المتوكلـون قيل نعم قـال هو الـذي يلقي الحب في الأرض ثم يتوكل على ربه". كـذلك فإنه عنـدما دخل السـوق في خلافته فـرأى غالبية من فيه من النبط اغتم لذلك. ولما اجتمع الناس أخبرهم بذلك وعذلهم في ترك السوق فقـالوا إن الله أغنانا عن السـوق بما فتح به علينا فقـال والله لئن فعلتم ليحتـاج رجـالكم إلى رجالهم ونساؤكم إلى نسائهم".

وقــــــال أبو قلابة لرجل لأن آراك تطلب معاشك أحب إلى من أن أراك في زاوية المسجد. وسئل النخعي التـاجر الصـدوق أحب إليك أم المتفـرغ للعيـادة فقـال التـاجر الصدوق أحب إلى لأنه في جهاد يأتيه الشيطان من طريق المكيال والميزان ومن قبل الأخذ والعطاء.

وكان دأب السـلف التثبت من الجمع بين العلم والعمل فحكى الأمـام الشـافعي في **"الرسالة"** والغزالي في **"الإحياء"** أن المكلف لا يجوز أن يقدم على أمر حـتى يعلم حكم الله فيه وقـال القـرافي في **"الفـروق"** فمن بـاع وجب عليه أن يتعلم ما عينه

---

3 **(3) الاحتراف وآثاره في الفقه الإسلامي للدكتور محمد رواس قلعجي، صفحة 21 و22 بحث نشره المركز العالي لأبحاث الاقتصاد الإسلامي جامعة الملك عبد العزيز جده.**

4 **(4) المصدر نفسه.**

الله وشرعه في البيع، ومن آجر وجب عليه أن يتعلم ما شرعه الله في الاجارة ومن قارض وجب عليه أن يتعلم حكم الله في القراض.

وقال العلماء لا يجوز أن يتولى البيع والشراء ويجلس في السوق لذلك إلا من هو عالم بأحكام البيع والشراء وأن تعلم ذلك لمن أراده فرض واجب متعين عليه.

وبعث عمر من يقيم من الأسواق من ليس بفقيه.

وكان مالك يأمر الأمراء فيجمعون التجار والسوقة ويعرضونهم عليه، فإذا وجد أحدا منهم لا يفقه أحكام المعاملات، ولا يعرف الحلال من الحرام أقامه من السوق وقال له تعلم أحكام البيع ثم اجلس في السوق، فإن من لم يكن فقيها أكل الربا. وكان التجار في القديم إذا سافروا استصحبوا معهم فقيها يرجعون إليه في أمرهم.

وفي المعاصرين ذهب الشيخ محمود شلتوت رحمه الله إلى أن القرآن **يعبر عن العقيدة بالإيمان.. وعن الشريعة "بالعمل الصالح" وأن الإسلام يحتم "تعانق الشريعة والعقيدة بحيث لا تنفرد إحداهما عن الأخرى على أن تكون العقيدة أصلا يدفع إلى الشريعة والشريعة تلبية لانفعال القلب بالعقيدة. وقد كان هذا التعانق طريق النجاة والفوز بما أعده الله لعباده المؤمنين."**[5] وهو لا يخرج عما ذهبنا إليه من أن العمل هو مصداق الإيمان.

ومقارنة جانبيّ العمل – أي العمل كمصداق للإيمان.. والعمل كمعيار للثواب والعقاب توضح لنا أن العمل الإسلامي وإن كان محكوما بالإيمان ويفترض أن يأتي تصديقا له.. **إلا أنه من ناحية أخرى له وجوده الموضوعي وكيانه الخاص.** فالعمل الحسن أو بالتعبير القرآني (الصالح) من كرم أو شجاعة أو عدل أو إنفاق أو وفاء بالعهد والوعد... الخ، له كيانه الخاص ووجوده قبل الإسلام وبعد الإسلام وسواء وقع في دار إسلام أو في دار كفر... من مسلم أو غير مسلم.

وحتى في الجانب الذي يكون العمل فيه محكوما بالإيمان فليس هناك صعوبة في تبين أن دعوى الإيمان مفتوحة ولا يمكن جحدها لكل من يدعيها أو يقول "لا إله إلا الله محمد رسول الله" وأننا لا نستطيع أن نفترض في كل واحد فناء الحلاج أو هيام رابعة العدوية مما لا يمكن ضبطه أو تقديره، وما يمكن أن يجنح بصاحبه إلى بحار الأهواء المتلاطمة. وبالتالي فإن الدليل الوحيد لابد أن يكون العمل، لأن النية والقلب محجوبان عن هذا المجتمع لا يعلمهما إلا الله، **ولهذا المعنى جاز للعمل - وهو المحكوم بالإيمان – أن يكون هو نفسه دليلا على الإيمان، ومعيارا للثواب والعقاب،** ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه﴾.

وهناك حكمة دقيقة وهامة في هذا القرن ما بين الإيمان والعمل، وجعل العمل مصداقا للإيمان، ذلك أن العبادات التي تصطحب تقليديا في الأذهان بالإيمان من صلاة أو صيام أو حج... الخ، يمكن أن تصبح طقوسا شكلية، ويمكن ان تصبح أداة لتعميق

---

[5] **(5) كتاب "الإسلام عقيدة وشريعة" ص 6 ، 7.**

الإحساس بالـذات بصـرف النظر عن المجتمـع. فالمصـلي لا يعنيه ما تـدور عليه حيـاة الناس حوله وما يملأ دنياهم من هموم ومشاكل ما دام هو عاكف على صلاته وصـيامه، مؤمن أنه أدى واجبه وأنقذ نفسه وأرضى ربه، بل قد يتطور الأمر فتعطي هذه الصـلاة والصيام منعزلة عن العمل إشـباعا كاذبا يرضي الضـمير، وأن هـذا هو المطلـوب منـه، وقد أداه فلا عليه إذا انصـرف إلى غـير ذلك مما يـراه خـارج إطـار العبـادة وطبقا لمصلحته وهواه دون أي اعتبار آخر، وأخيرا فقد تحيف العبادة على العمل، كما يحـدث عندما يترك موظف عمومي عمله ليصـلي الظهر بمجـرد سـماعه الأذان ويـدع النـاس واقفين أو متعطلين في انتظاره وقد يطيل ويصلي النوافل أيضـا، وكأنه يتلـذذ بتعـذيب الناس أو يتقرب إلى الله بتعطيل أعمالهم!! في حين أن في الوقت المباح متسع، وأن تفريج كربات الناس أفضل من أي قربى أخرى، وقد تحرص إحدى الموظفات على أن تغطي رأسـها بطرحة كثيفـة، ولكنها لا تحـرص على خدمة المواطـنين، وقد تكـون قد لفت رأسها تخلصا من تصفيف شعرها أو سترا لبعض عيوبه، أي لغـرض مـادي وذاتي، أكثر مما هو استجابة لما تظن أنه توجيه من الشريعة.

وعلى مستوى المجتمع فـإن تقوقع الـوعي الإسـلامي في إطـار العبـادة وتخليه عن مجال العمل والحياة أدى إلى صور من المفارقات تثـير الدهشة والأسـى. فكيف وسع علماء الأزهر الأجلاء السكوت على ظاهرة البغاء. أو بالتعبير القـرآني (الزنـا) المصـرح به من الدولة والـذي كـان يمـارس تحت حمايتها ورعايتها لأكـثر من خمسـين عامـا.. وعنـدما قضي عليـه، فلم يحـدث ذلك تلبية لضـغط من علمـاء الأزهـر، ولكن كمنـاورة سياسية. وكيف يجوز حتى الآن أن تستمر المحال العامة الكبرى ومعظمها قطاع عــام في جعل أجازتها الأسبوعية الأحد، بحيث يكون البيع والشراء على أشده يوم الجمعـة.. والأذان يتعالى ونص القـرآن صـريح وصـادع ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا إِذَا نُـودِي لِلصَّـلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَـةِ فَاسْـعَوْا إِلَى ذِكْـرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْـعَ ذَلِكُمْ خَيْـرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُـونَ﴾، ولا يرتفع صوت من عالم أو من نقابة عمال التجارة يقول "على الأقل اغلقوا هذه المحال وقت الصلاة وأوقفوا هـذا التحـدي والوقاحة لنص القـرآن وتوجيهـه". بل إن المسـاجد نفسها ظلت حتى فترة قريبة جدا مسرحا للكاسيات العاريـات من السـائحات دون أن يخطر في ذهن أحد من الشـيوخ أن يلـزمهن أدب الإسـلام ما دمن يـدخلن مسـاجد الإسلام.. وتجاهل المشرفون على جامعة الأزهر صورا عديـدة من تـبرج الطالبـات بعد أن وقف الشيخ النجار لهذه الظـاهرة بالمرصـاد وكـاد يقضي عليها عنـدما كـان مـديرا للأزهر..

باختصار فـإن الفصل ما بين "الإيمـان" و"العمـل" عـزل الإسـلام عن مجـال الحيـاة تماما وأدى إلى إعمـــال المبـــدأ المســـيحي "دع ما لقيصر لقيصر وما لله للـــه" في المجتمع الإسلامي أكـثر مما هو مطبق في المجتمع المسـيحي حيث يكـون للمسـيحية صوت في المجتمع، وإن تخلت عن السياسة.

وحقيقة أن العمل، كما توضح الآيات التي استشهدنا بها من قبيل المثال لا الحصر – هو مصداق الإيمان ومعيار الثـواب والعقـاب يجب أن لا تثـير دهشـتنا لأن الإسـلام دين

حياة ومجتمع وهو يرسي أسسا محددة في الاقتصاد والسياسة، ويتطلب مستويات معينة في التصرفات والمعاملات، فلابد أن يكون العمل هو المحور والمعيار داخل الإطار الواسع للإيمان.. وبدون ذلك لا يمكن للمجتمع أن يكون قويا متماسكا سليما ولا يمكن أن تتوفر له القوة والمنعة والعزة والحماية من افتيات الدول الأخرى. بل ولا يتوفر له العلم الذي هو في أساس الإيمان ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾. وعندما أهمل المجتمع الإسلامي "العمل" أو أساء فهمه فإن هذا المجتمع قد هوى بسرعة وتراجع أمام المجتمعات التي أخذت بأسباب العمل ولو أمعن المسلمون النظر في قرآنهم لفهموا العمل حق الفهم ولما كان لهم عذر في الخلط ما بين " العمل" والعبادة أو الظن أن العمل إنما يراد به الصلاة والصيام... الخ. فتفرقة القرآن واضحة فالعمل الصالح له محتواه ومضمونه الذي يتميز عن الشعائر من صلاة وصيام والذي يذكره القرآن جنبا إلى جنب الصلاة والصيام مما يوضح أن له كيانه الخاص. وعندما أشار الله إلى وراثة الأرض فإنه لم يورثها للمسلمين أو المصلين أو المؤمنين ولكن للصالحين وسنرى في فصل تال ما هو المدلول الحقيقي لمعنى "الصلاح والصلاحية" التي أرادها القرآن.

وإنها لمأساة مفجعة أن أغفل المجتمع الإسلامي المعنى الكبير للعمل وعلاقته الوثيقة بالإيمان وأن تنبه إلى هذا المعنى شعوب بعيدة كل البعد عن الإسلام. فالذين زاروا "كوريا" و"اليابان" وتفقدوا مصانعها لمسوا أن العمال هناك يؤمنون أن العمل عبادة ويمارسونه بالتركيز واستحضار القلب الواجب للعبادة. فالمصنع مسجد له قداسة المسجد، والعمل عبادة له استغراق العبادة والعمال يتقربون إلى الله بالإنتاج لأن هذا الإنتاج يملأ البطون الجائعة، ويكسو الأجسام العارية ويشفي الأبدان المريضة و﴿يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ ويشيع بينهم الفنون والآداب ويرسم الابتسامات على الشفاه ويعيد الآمال إلى النفوس ويكفل للشعب كله العزة والكرامة والاستغناء عن التكفف أو الاستدانة من الآخرين.

وأي قربى إلى الله أفضل من هذا ؟..

الفصل الثانى
أخلاقيات العمل
القربى إلى الله والمبدئية الاسلامية

لما كان العمل – كما قدمنا – هو مصداق الإيمان في الحياة الدنيا وفي الآخرة.. فإن هذا يستتبع أن يأخذ العمل الإسلامي الطبيعية الأخلاقية – الإيمانية التي تتسم بها الأديان جميعا، والتي تميزها عن النظم والقوانين الوضعية. إذ المفروض أن يأتي المصداق والمعيار من صميم ما يصدر عنه، أو يقاس به.

فالعمل في الإسلام جزء لا يتجزأ من البناء الإسلامي وهو إجمال لكافة الفرائض الإسلامية – عبادية أو دنيوية. وبالتالي فإنه يكتسب تلك الهالة من القدسية المعنوية والأدبية التي يضفيها الدين على كل ما يمت إليه.

وهذه الحقيقة تعطي العمل الإسلامي طبيعة تختلف كل الاختلاف عن طبيعة العمل في المجتمع الرأسمالي أو الشيوعي حيث لا يكون للعمل – بالضرورة – طبيعة أخلاقية، ويقتصر على أن يكون وسيلة لتقاضي الأجر ولكفالة مستوى معين من المعيشة. كما يمكن أن يكون – أي العمل – أداة لإشباع الهوايات أو مراكمة الأرباح أو دليلا على النجاح والتفوق أو وسيلة لتطبيق سياسات لحزب. وهذه كلها لا تشترط توفر طبيعة أخلاقية – ولا يختلف فيها قرش يأتي من قس، وآخر يأتي من مومس – وفي حالات عديدة تكون الأعمال اللاأخلاقية من تحلل أو جنس أو قمار أو خمر أو غش، أكثر ربحا وكسبا وإغراء من أي أعمال أخرى. ومع أن الطبيعة العملية المهنية نفسها اقتضت وجود آداب للعمل، وتمخضت عن ضمير مهني.. إلا أن هذه الآداب والضمائر ليست لها الطابع الموضوعي والمطلق وهي تتذبذب وتتفاوت من مكان لآخر.. ومن مهنة لأخرى، ومن وقت لآخر، وقد تكون بين القائمين على العمل بعضهم بعضا، ولكن على حساب العمال أو المستهلكين وقد يجامل الضمير المهني أرباب المهنة على حساب الآخرين. وهذا لا ينفي وجود بعض ممارسات تتّسم بأخلاقية بارزة ولكنها تكون حالات فردية. وإذا غطت مهنة كاملة، فلابدّ أن يكون لها أصل ديني كمهنة التمريض التي قامت في حضانة المحبة المسيحية وعلى أساس أنبل وأخص ما فيها.

إن قصور الفكر الغربي في مجال العمل لم يحدث بالنسبة للوسائل، فقد أبدع الكثير منها.. فقد تحدث البروفيسور تاوني عن الملكية كوظيفة والمهنة كرسالة، وتحدث بيتر دركر عن المنشأة كمجتمع، وأشار الكتّاب الأمريكيون إلى العلاقات الإنسانية.. وتوصل العمال في ألمانيا الغربية إلى المشاركة في الإدارة، كما تولّى العمال بأنفسهم الإدارة في يوجوسلافيا ولكن كل هذه الوسائل لم تنجح تماما لأنها فقدت أي أساس ديني لها. والأساس الديني هو القاعدة الصلدة لأخلاقيات العمل. فلم

تصل هــذه الوســائل إلى العمق المطلــوب.. كما تطــرقت إليها درجــات متفاوتة من الفساد والوهن، لم تكن مألوفة عندما كانت العلاقة بين الـدين والعمل قائمـة، قبل أن تودي بها "كلبية" الرأسمالية الضارية..

وكل من يقرأ تاريخ الطوائف الحرفية الـتي انتشـرت في الشـرق والغـرب وتـولت تنظيم علاقات العمل يعرف أنه لم يكن يسمح لأي "صبي" بـأن يكـون "صـانعا" أو لأي "صـانع" أن يكـون "أسـطى" أو لأي "أسـطى" أن يكـون "معلمـا" إلا بعد أن يشـهد له المعلمـون الحاضـرون بحسن الخلـق.. وكـرم المعاملة وإتقـان العمل وأداء الفـروض الدينية، ففي هـذه العهـود كـان إتقـان العمل والتمسك بالشـعائر الدينية وجهين لعملة واحدة...

وتصور إحدى الوثائق الطريقة التي كانت تتم بها حفله "الشد والحزام" الـتي يمكن عن طريقها للعامل أن يدخل الصنعة..

... ".. ويكـون جميع الحاضـرين جالسـين على ركبهم مطـرقي الـرؤوس ثم يطلب النقيب من العامل قـراءة الفاتحة مـرة ثانية ثم يـذكر النـبي ويتلو الفاتحة مـرة ثالثـة، وبعد أن يفرغ منها يسـلم النقيب سـبع سـلامات. سـلام على الحاضـرين، وسـلام على الحرفة وشـيوخها وسـلام على أهل الميمنة وسـلام على أهل الميسـرة وسـلام على السـادة وسـلام على الإصـلاح وسـلام على الأحبـاب ثم يلتفت إلى العامل ويقـول له أوصـيك يا من تخـاوي أو تعاهد بـأداء الفـروض ورعاية العهد ويشـهد عليك الحفظة وسيكتب من يضيعه من المبعدين.

يا بني إن جميع الحرف أهلها أمناء على الأعراض والأرواح والأمـوال – فكن صـادقا أمينا واعلم أن كـارك مثل عرضك حافظ عليه بكل ما تملـك، وإذا اسـتلمت أمـوال الناس فلا تفرط فيها واياك أن تخون أهل لحرفة. والخائن مسئول..

ثم يلتفت إلى الحاضرين ويسألهم.

- هل يستحق أن يكون صانعا.

فيقولون – نعم.

وحينئذ يأخذ عليه العهود الخ..."[(6)]

ومن الجمل ذات المغـزى العميق الـتي وردت في هـذه الفقـرة جملة "واعلم أن كـارك مثل عرضـك" فالحرفة هي كـالعرض يلحظ فيها من الأمانة والصـيانة والحفظ والغيرة ما يلحظ للعرض...

* * *

ومنابع أخلاقيات العمل في الإسلام ثلاثة:

---

[6] **(6) انظر كتابنا "الإسلام والحركة النقابية" ص 50.**

الأول – الضمير الإسلامي المهني في الفرد.

الثاني – الضوابط التي وضعتها الشريعة لتحقيق الأخلاقيـات الإسـلامية من تحليل أو تحريم لمختلف الممارسات العملية والاقتصادية.

الثالث – أصـول ومقاصد الشـريعة والـروح العامة للإسـلام الـتي يستضـاء بها عند حظر أو إيجاب صنوف من النشاط أو العلاقات لم ترد في الضوابط السابقة، وتستلهم عند وضع سياســات العمل وتقعيد علاقاته الــتي وصــلت إلى درجة عالية من التعقيد والتشابك في المجتمعات الصناعية الحديثة.

والمنبع الأول – الضمير الإسلامي المهني – هو أهم هذه المصادر لأنه يقوم بما لا يمكن أن يقـوم به غـيره.. أعـني الرقابة الذاتية اليقظة الدائمة والمتجـددة على عمل العامــل.. فمن أين نـأتي بمثل هــذا الـرقيب الــذي يلاحظ ويتـابع كل جزئية من الجزئيات التي يقوم بها العامل من بدء العملية الصـناعية أو التجارية أو الخدمـة، حـتى نهايتها؟ وأنى لنا أن نـوفر لهـذا الـرقيب القـوة المتجـددة الـتي يتغلب بها على عوامل الضـعف وإغـراءات الكسب ونـوازع القصـور والجهد الأقـل؟. إن أي نظـام سياسي أو حاكم لا يمكن أن يوجد هذا الرقيب.. وكل القـوانين والسـلطات ووسـائل القمع ونظم المحفزات تعجز عن أن تتابع في السر والعلن أداء العامل أو تقهر فيه عوامل الضعف والإغراء، وليس هناك سوى قوة واحدة قاهرة مهيمنة عالمة بالسر والنجـوى هي قـوة اللــه.. وليس هنـاك من شخصـية تتمتع بالتقـديس وتلهم الأسـوة والقـدوة كشخصـية محمّد، من هنا فــإن ما يــأمر به الله وما يوجه إليه الرســول يصل إلى أعمق أعمــاق العامل ويصبح العمل الإسلامي استجابة لإرادة الله في إعمار الكون وقربى إليه بتنفيذ أوامره وتطبيق توجيهات رسوله.. وعندما تتملك مثل هذه المعاني نفسـية العامل فإنه "يستحضر" من خلوص النية وصدق العزيمة وصفاء القلب ما يستحضره عند العبــادة.. وعندئذ يكـون الإتقـان والإحسـان والحـرص على الأداء الأمثل وتحقيق الكفاية الإنتاجية وحسن اســتثمار الــوقت والمــواد.. الخ.. نتيجة طبيعية لمثل هــذه المشــاعر العميقة وللمحفزات الإيمانية والنفسية التي تفوق بمراحل – حتى وإن لم ترفض – المحفــزات الأخرى الإيجابية والسلبية من زيادة في الأجر أو تهديد بالعقاب أو تشديد للمراقبة. لان الأجر النقـدي هو من وجهة نظر العامل المسـلم جـزء مما يظفر به لقـاء العمـل.. أما الجزء الثاني فهو رضا النفس وإشباع الشخصية وحمد الله وشكره على ما قـدره عليه من عمل وما أتاحه له من مسـاهمة في بنـاء المجتمع ومسـاعدة إخوانه على الحيـاة والتقرب إليه بذلك ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ﴾ "[7]

قد يقول بعض الناس إننا لا نلحظ أبـدا في حياتنا الراهنة مثل هـذا الضـمير المهـني الإسلامي. وقد لا تكون هناك صورة أبشع من صور الاستغلال في الأداء الـتي يمارسـها سواقو التاكسي أو جزارو الجمعية التعاونية في القاهرة حيث تتضافر الغطرسة وسوء الخدمة مع الاستغلال المالي البشع بحيث يكاد يكون عمل هؤلاء سرقة صريحة "عيـني عينك". وقد يكون تسعة أعشار هؤلاء مسلمين فكيف لم يتحـرك ضـمير واحد منهم؟..

[7] **(7) انظر كتابنا "الإسلام والحركة النقابية" ص112.**

الـرد أن هـؤلاء مسـلمون بالاسـم. فكل إسـلامهم أن أسـماءهم أحمد أو محمد الخ.. والذي لديه وعي إسلامي منهم – فإن هذا الوعي متقوقع في العبادة لا يمكن أن يخرج منها إلى الحيـاة بفعل سـوء الفهم المـتراكم قرونا بعد قـرون. وهنـاك جهل مطبق بالمعـاملات الإسـلامية وآداب ومبـادئ العمل الإسـلامي لم يتحـرك أحد لزحزحته وتقاعست عن ذلك أجهزة الـدعوة والإرشـاد الرسـمية، وعـزفت عن معالجته الهيئـات الإسلامية وأجهزة الثقافة العمالية والمنظمات النقابية التي لها علاقة مباشـرة بـالأمر. وقد عايشـنا هـذه وتلك معايشة فعالة لأكـثر من ثلاثين عامـا. ولم نلحظ أن أي نقابة عـنيت بهـذه الموضـوعات ونظمت دورات ودراسـات لتوعية أعضـائها بـآداب المهنة وأخلاقياتها وعلى النقيض فقد حـدثت سـنة **1981** أزمة بين مضـيفي شـركة مصر للطيران وإدارة الشركة عندما رفض هؤلاء بيع الخمـور داخل الطـائرات. فوقف ممثل العمـال في مجلس الإدارة مع الإدارة ضد المضـيفين، ولم تحـرك النقابة سـاكنا كـأن الأمر لا يعنيها!! واضطر المضيفون للالتجاء إلى القضـاء، وهو الملاذ الأخـير للإنتصـاف. فأصدر حكما كان صفعة لمجلس الإدارة نصير الخمـور، وللنقابة اللاهيـة.. أما مؤسسة الثقافة العمالية فإنها لا تقـرب الإسـلام إلا من خلال محاضـرة قد تضـعها في البرنـامج العام عن "القيم الروحية" أشبه بالوعظ والإرشاد. وقد أجرت جريدة الأهـرام سلسـلة من الأحاديث والندوات عن الممرضات ومشكلة التمريض في صيف **1981**، ولم يـرد في أي منها ولو مجـرد إشـارة إلى الـوازع الـديني وما يمكن أن يقـوم به الإيمـان الإسـلامي في تقـويم هـذه المهنة وصـلاح حالهـا. ومهنة التمـريض أساسا قـامت في حضـانة الأديـار والكنيسة وكـان الإيمـان المسـيحي هو الـذي تغلب على صـعوبات ومضايقات المهنة. فالإسلام غـائب تماما عن أذهـان الإنتلجنسـيا المصـرية.. هـذا فضلا عن الفساد المدوي من الحكام وإهدار كل القيم والمبـادئ الإسـلامية فالإسـلام لم يعد لكثير من هؤلاء المفخرة، والملاذ، والإلهام، ولكنه الخصم والعدو، أو هو القاضي الـذي يصـمهم بالخيانة والانحـراف.. فيكف يمكن للأخلاقيـات الإسـلامية أن تظهر وسط مغارات اللصوص.. هذه..

ومن المهم أن نوضح أن أخلاقيات العمل الـتي تنبثق من اعتبـاره قـربى إلى الله لا تخرج منه عناصر الربح الخاص أو إشباع الشخصية أو جماليـات العمـل، ومباهجـه. فلو حـدث هـذا لما كـان هنـاك فـرق ما بين القـربى إلى الله بالعمـل، والقـربى إلى الله بمختلف شعائر العبـادة من صـلاة أو صـيام. إن اعتبـار العمل قـربى إلى الله إنما يبعد عنه عناصر الشر والـدنس والاسـتغلال والتلفيق والكـذب كما أنه يخضع نـوازع الـربح والكسب والطموح للحدود التي وضعها الإسلام بحيث تؤتي خيرها وتبعد شرها.

* * *

والمنبع الثاني لأخلاقيات العمل في الإسلام **ما وضعه الإسـلام صـراحة من قواعد ومبـادئ لتحقيق هـذه الأخلاقيـة.** فقد حـرم الإسـلام كل صـور الكسب والممارسـات الـتي تقـوم على دعـارة أو خمر أو قمـار أو اسـتغلال أو غش أو غـرر أو احتكار أو إكراه أو ربا.. وفي مقابل هذا أوجب الاتقان والإحسـان والأمانـة. وانسـحبت

هــذه كلها ليس فحسب على الإنســان ولكن **على الجمــاد والحيــوان.** لأن أخلاقية العمل في الإسلام "مبدئية" فهي تسري على الجميع. وإذا كانت منظمة العمل الدولية قد حــددت في إحــدى اتفاقياتها الحد الأقصى لما يمكن أن يكلف حمّــال بحملــه، فــإن الإسلام قد حدد هــذا بالنســبة للحيــوان. فــروى ابن عبد الحكم في ســيرة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه – أنه نهى عن اركــاض الفــرس إلا لحاجة وأنه كتب إلى صــاحب السكك أن لا يلجموا حيوانا بلجام ثقيل ولا ينخس بمقرعة في أسفله. وكتب إلى حبان بمصر "بلغني أن بمصر إبل نقالات يحمل البعير منها ألف رطل، فإذا أتــاك كتــابي هــذا فلا أعرف أنه يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل".. وحــتى في الفــترة المتــأخرة من الفكر الإســلامي عنــدما أطبقت عليه الغشــاوات والظلمــات نجد التــاج الســبكي (المتوفي سنة **771**هـ) يذكر بين واجبات البريدية الذين يحملون رسائل الملك وكتبه : "وحق على كل بريــدي ألا يجهد فرسه بل يســوقها بقــدر طاقتها وقد كــثر منهم ســوق الخيول السوق المزعج بحيث تهلك تحتهم أفما علموا أنها من خلق الله".

وكــان من واجبــات المحتسب ملاحظة الرفق بــالحيوان فكــان عليه أن يأخذ أربــاب البهــائم بعلوفتها إذا قصــروا وأن لا يســتعملوها فيما لا تطيق وعلى المحتسب أن يــأمر جلابي الحطب والتبن وغــيرهم إذا وقفــوا في العــراص أن يضــعوا الأحمــال من على ظهــور الــدواب لأنها إذا وقفت والأحمــال عليها ضــرتها، وكــان في ذلك تعــذيب لها وقد نهي الرسول عن تعذيب الحيوان لغير مأكله، ويذكر الشيزري في الحسبة على الجزار أن لا يجر الشــاة برجلها وأن لا يــذبح بســكين كالة لأن ذلك تعــذيب للحيــوان ويشــترط على من يتعاطى الــبيطرة أن يكــون ذا علم بعلل الــدواب وعلاجها وذا دين يصــده عن التهجم عليها بفصد أو قطع أو كي، فيــؤدي ذلك إلى هلاكها أو عطبها لأن الــدواب ليس لها نطق تعبر به عما تجد من المرض والألم.

وهذه التوجيهات مبنية على أحــاديث **تكــررت روايتها عن النــبي** كما أن هناك أحاديث أخرى تمنع من كي ووشم الحيوان في الوجه واســتمرار ركــوب الــدواب وهي واقفة واتخاذها منــابر والنهي عن التحــريش بين الطيــور والحيوانــات أو اتخاذها غرضا تصوب عليه النبال. وقد قضى النبي على عادة ربط الجمل بقــبر صــاحبه حــتى يموت معه ونهى عن قص معارف الخيل وأذنابها.

بل أن أخلاقيات العمل تنسحب على الجمــاد أيضا فنهى النــبي عن قلع الشــجر أو عضــده، ونهى عن الإســراف في اســتخدام الميــاه عند الوضــوء "ولو كنت على نهر جار"...

فإذا كانت أخلاقية العمل في الإسلام قد أحاطت هذه الإحاطة بالتعامل مع الحيــوان والجمــاد فهي بالنســبة لمختلف مجــالات النشــاط العملي للإنســان أوسع وأكــثر وقد شملت مضمون العمل بحيث استبعدت كل صور الممارســات اللاأخلاقيــة، كما شــملت الأداء فأوجبت الإتقــان والإحســان والأمانة والوفــاء بالوعد والعقــود.. "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنــه".. "إن الله كتب الإحســان في كل شــئ" .. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُوا أَوْفُوا بِـالْعُقُودِ. "الصـلاة أمانة والوضـوء أمانة والـوزن أمانة والكيل أمانة وأشد ذلك الودائــع".. إِنَّ اللَّهَ يَـأْمُرُكُمْ أَنْ تُـؤَدُّوا الأَمَانَـاتِ إِلَى أَهْلِهَا... والآيــات القرآنية الواردة في الوفاء بالكيل والميزان أكثر من أن تذكر..

وقد تتضح أخلاقية العمل الإســـلامي من أنه يعطي العامل الحق بل يـــوجب عليه الامتنـاع عن بعض صـور الأداء الـتي تنـاقض التوجيهـات الإسـلامية، حـتى وإن أمر بها رؤساؤه أو جر عليه مغنما. وقد ضـرب الشـيخ تـاج الـدين عبد الوهـاب السـبكي بعض أمثلة ذلك عند حديثه عن واجبات بعض الحرفيين.. فمن ذلك أن الساقي لا يحل له أن يحضر لمخدومه منكرا يشربه وعليه إعمال الفكرة والحيلة في سد هذا الباب وبالنسبة للفراشــين الـذين ينصــبون خيـام الأمــراء "وحق عليهم أن لا يحتجـروا على النــاس ويمنعونهم أرض الله الواسـعة. فما أظلم فـراش الأمـير وغـيره إذا جـاء إلى ناحية من الفضاء فوجد فقيرا قد سبق إليها ونزل منها ليخيم للأمير مكانه وحكم الله أن السـابق أولى والأمير والمـأمور في ذلك سـواء". وبالنسـبة للمكـاري "ومن حقه التحفظ فيمن يركبه الدواب ولا يحل لمكار يؤمن بالله واليوم الآخر أن يكري دابته من امــرأة يعــرف أنها تمضي إلى شئ من المعاصي فإنه أعانه على معصــية اللـــه". أما الســجان "وإذا علم السجان أن المحبوس حبس بظلم كان عليه تمكينه من الفرار قدر استطاعته وإلا يكون شريكا لمن حبسه في الظلم". ورأى التاج السـبكي أن "المشـاعلي" وهو الـذي يكلف بتنفيذ حكم الإعدام شنقا أو قتلا "متى أمر ولي الأمر مشاعليا بقتل إنسان بغــير حق والمشـاعلي يعلم أن المقتـول مظلـوم فالمشـاعلي قاتل له يجب عليه القصـاص وإن كـــان ولي الأمر أكرهه أو جعل أمــــره إكراها فالقصــــاص حينئذ عليهما جميعا عند الشافعي" [(8)]

فهذه النصـوص توضح أن أخلاقية العمل في الفقه الإسـلامي تجعله بعيـدا كل البعد عن الصور الفاشية للعمل في المجتمع الرأسمالي أو في السلك الحكومي والإداري أو العسكري حيث لا تشترط أخلاقية أو يفرض فرضا الالـتزام بالتعليمـات.. أو تعد إطاعة الأوامر مبررا للإعفاء من المسئولية.

* * *

أما المصــدر الثــالث لأخلاقية العمل فإنه الأصــول والمبــادئ العامة للإسلام وما يسـتلهم منهـا. فعلى سـبيل المثـال عنـدما هـدم الإسـلام الحـواجز الطبقية، ونادى بوحدة الإنسـان ومسـاواة الأفـراد وقـاوم تلك الاعـتزازات بـالجنس أو باللون أو بالوراثة أو الغنى فإنه **أعلى من قيمة العمل اليدوي.** فرفع النبي ﷺ عاليا يد الصحابي التي مجلتها المسـحاة من العمل قـائلا: "هـذه يد يحبها الله ورسـوله". بل وجعل العمل اليدوي الأفضل فعندما سئل أي الكسب أطيب قال: "عمل الرجل بيده.. وكل بيع مبرور".. وقال: "ما أكل أحد طعاما قط خـيرا من أن يأكل من عمل يديه وأن نــبي الله داود عليه الســلام كــان يأكل من عمل يديــه".. وقــال: "إن الله يحب العبد

---

[8] **(8) انظر الاستشهاد بهذه الأمثلة وغيرها في كتابنا "الإسلام والحركة النقابية" ص 88 – 91.**

المحترف" وقال: "من أمسى كالا من عمل يده أمس مغفورا له".. وعندما كان النــبي وصــحابته في ســفر وأرادوا إعــداد الطعــام وتكفل كل واحد بجــانب من العمل قل الرســول "وعليّ جمع الحطب" ورفض أن يكفيه صــحابته قــائلا إن الله يكــره العبد المتمــيز" وكــان في بيته يخصف نعله ويرقع ثوبه ويحلب شــاته ويعقل بعــيره ويعلف ناضحه ويقم (أي يكنس) بيته. وهناك من صغار الموظفين من يجدون حرجا في القيام بمثل هــذه الأعمــال ويــرون ذلك عــارا ولكن النــبي العظيم لم يســتنكف عن هــذا ولم يستنكف أن يقول للعباس وبنيه وهم يسقون ويعملون في زمزم "اعملــوا فــإنكم على عمل صالح"، ثم قال: "لولا أن تغلبوا لــنزلت حــتى أضع الحبل على هــذه"، وأشــار إلى عاتقه "البخــاري". وقد كــانت فاطمة الزهــراء وزوجها على بن أبي طــالب في ذروة "الأرستقراطية" الإسلامية القرشية النبوية.. ومع هــذا فإنها جــرت الــرحى حــتى أثــرت في يدها. واستقت بالقرية حتى آثرت في نحرها وكنست البيت حــتى أغــبرت ثيابهــا".. وعندما ســألت أباها أن يعينها بخــادم قــال لهــا: "اتقي الله يا فاطمة وادي فريضة ربك واعملي عمل أهلك". ونصحها بالدعاء.

وبينما كان أبو جهل يأسى وهو في ســكرات المــوت لأن الــذي أصــابه (عبد الله بن مسعود) من رعاة مكة ومستضعفيها ويقــول لــه: "لقد ارتقيت مــرتقى صــعبا يا رويعي الغنم". كان الرسول نفسه يقول إنه رعى الغنم على قراريط لأهل مكة.

هذا مثال واحد لأثر أصل من الأصول الإسلامية على أخلاقيــات العمل وهو يوضح لنا كيف أن المساواة التي جــاء بها الإســلام أعطت العمل اليــدوي "أخلاقيــة" وتكريما بعد أن كان في العهد القديم بأسره وســواء عند المصــريين القــدماء أو اليونــان أو العــرب أنفســهم في الجاهلية يصــطحب بالمهانــة. **وعند تــدهور القيم الإســلامية في المجتمع الإسلامي نفسه فقد العمل اليدوي هذا التكريم وعــادت المهانة مرة ثانية إليه.**

ومع أن آثار الأصــول الإســلامية على أخلاقيــات العمل يمكن أن تكــون كثــيرة كــثرة هذه الأصول إلا أن الاستفادة العظمى من هذه الأصول قد لا تكون على وجه التعيين – في مجال أخلاقيات العمل.. ولكن **في مجال سياســات العمل وعلاقــات العمل** وهذا هو ما سنعالجه في الفصل التالي.

إن الأهمية الكــبرى لقضــية العمل في العصر الحــديث وأنها المحــور الأعظم الذي تدور عليه الحياة اليومية للناس قاطبة، وأن الخلل والنقص والقصــور فيها يثــير الاضــطراب ويفــاقم المشــكلات.. تجعل لأخلاقيــات العمل نصــيبا بــارزا في تحقيق الــدور المطلــوب.. والحيلولة دون أن يتطرق إلى عالم العمل عناصر الفساد والانحــراف. وقد نــاشــد البروفيســور تــاوني **R. H. Tawney** فــي ختــام كتــابه "مجتــمع الاستحــــواز". **“Society The Acquisive ”** الكنيسة أن تعــود لممارسة مســئولياتها الأدبيــة، وأن تكــافح ليستلهم العمل من إدارات ونقابات القيم والمثل المسيحية، وأكد أن هــذا ليس خيــالا،

أو "يوتوبيا" ولكنه الحائل دون القلق والتوتر والفوضى.. وما تؤدي إلى هذه في النهاية من حروب.

الفصل الثالث
علاقات العمل
وتلاقي الحقوق بالواجبات

ظهر الإسلام قبل أن تحدث الثورة الصناعية في أوروبا بعشرة قـــرون تقريبــا، أي قبل أن يظهر المصــنع الآلي والقــوة المحركة والرأســماليون والطبقة العاملة والحركة النقابية، فضلا عن أن جزيرة العرب كانت صـحراء لم تقم بها حضـارة زراعية أو صناعية كالتي قـامت في مصر أو العـراق وكـان النشـاط الاقتصـادي البـارز شــيئا ما فيها هو التجــارة والــرعى. ومن هنا فلم يتضــمن القــرآن أو الســنة نصوصا صــريحة، ومحــددة عن علاقــات صــناعية بــالمعنى الــذي نفهمه الآن ما بين العمــال وأصحاب الأعمـال، ولكننا مع هـذا نسـتطيع أن نتوصل إلى هـذه الخطـوط من أصـلين أولهما المبــدأ الرئيسي **عن أن العمل واجب أولا، وعن هـــذا الـــواجب ينبع الحق،** وما يستتبعه هذا المنطق من آثـار على العلاقـات. والثـاني ما يمكن قياسه من العلاقات التي كـانت تحكم فئـتي قـوة العمل المـأجور الموجـودة وقتئـذ، وهما الخـدم والرقيق وكـذلك بعض الأحكـام الخاصة بالتجـارة الـتي تبلـور فيها النشـاط الاقتصـادي تقريبا في الجزيرة العربية عند ظهور الإسلام، واستنباط الأحكام المطلوبة من الأصول والمبادئ العامة التي استهدفها الإسلام لصلاح المجتمـع، وقد نجد عند قـراءة القـرآن، ومعـاني علاقـات العمل مائلة في الـذهن ما يمكن اعتبـاره أساسا لعلاقـات صـناعية إسلامية كالـذي حـدث عند تفسـيرنا للآية **282** من سـورة البقـرة – وهي آية الـدَيْن – تفسيرا يجسد الاتفاقيات الجماعية في العصر الحديث دون أي افتيـات أو تطويع للآيـة. (9)

- والأصل الأول من هذين ألا وهو أن العمل في الإسـلام واجب مشـتق من أن القـرآن الكـريم والسـنة النبوية يوجبـان إيجابا العمل على كل مسـلم، ويمليانه ويحــددان له طبيعته ونطاقه وأداءه، ثم لا يكتفيــان بــذلك، بل هما أيضا يوجبــان عليه اجتنـاب أنمـاط معينة من الأعمـال، وأسـاليب معينة من الأداء بحيث يشـمل الوجـوب الناحيتين الإيجابية والسلبية.

وهذا المنطلق – منطلق الوجوب – يختلف تماما عن منطلق العمل في المجتمعات الدنيوية الـتي لا تلـتزم بتوجيه الهي إذ يكـون العمل فيها بالنسـبة لعامة النـاس مجـرد وسيلة لاكتساب الرزق ("أكل عيش")، ويتركز الاهتمـام على الحقـوق ومـدى ما يمكن الوصـول إليه والحصـول عليه وتكـون الواجبـات تبعا للحقـوق ("على قد فلوسـهم")، وتخضع وسائل الأداء لطرق المراقبة والمحفزات المادية ويتحكم في سياســات العمل

[9] **(9) انظر هذا التفسير في كتابنا "الإسلام والحركة النقابية" الصفحات 76- 81.**

ما يسمونه "سوق العمل" وآلياته ("ميكانزم") دون النظر إلى أخلاقيات تحكم هذا السوق بينما يكون العمل لدى القلة المميزة مجرد وسيلة لكسب المال أو إنفاقه دون نظر إلى أخلاقيات تحكمه فيمكن أن يأتي عن طريق استغلال حروب أو أزمات أو خداع ويمكن أن ينفق على الاستمتاع والإثارة والبذخ والسفه.

ومن ناحية أخرى فإن الإسلام عندما يوجب العمل على الناس فإنه يعفي الدولة من أن تكون محتكرة توريد العمل، سواء أكان ذلك عن طريق تملك الدولة لوسائل الإنتاج (الذي يطلق عليه خطأ التأميم).. أو عن طريق إيقاع مسئولية تعيين الخريجين على وزارة القوى العاملة تبعا لما تضعه من قواعد، فهذا أو ذاك بعيد عن سياسة العمل الإسلامي وروحه وجوهر نظامه الاجتماعي والاقتصادي والسياسي.. لأنه يجرد الأفراد من الحرية والإرادة والتصرف في مستقبلهم بما يشاءون ولأنه يكثف قوة الدولة على حساب الشعب بحيث تصبح الدولة كما لو كانت هي ("الرزاق الوحيد") وما دامت هي الرزاق الوحيد فإنها تستطيع أن تحجب رزقها عمن تغضب عليه من معارضين أو مخالفين ويصبح هذا الاحتمال سلاحا فعّالا في يد الدولة لإخضاع الشعب وحمله على الإذعان والطاعة، وشيئا فشيئا يصبح الناس نوعا من رقيق الدولة ويفقدون حريتهم وكرامتهم وأصالتهم، ولا قيمة لشيء بعد هذا.

ولما كانت الواجبات الإسلامية (التي يدخل فيها العمل) ذات صفة شاملة ومطلقة وتوجه للناس عامة ودون استثناء وكانت طبيعة العمل وأخلاقياته مبدئية وواحدة لا تختلف فإن وجوب العمل لا يقتصر على العمال ولكنه ينسحب على أصحاب الأعمال والدولة. فالعمل بالنسبة لهم جميعا – واجب له أخلاقياته ومبدئيته والنتيجة أن يحدث تلاق يجعل واجبات فريق هى حقوق فريق آخر. فأخلاقيات العمل توجب على العمال الإخلاص والإحسان وعدم استغلال الوقت والمواد في غير مصلحة العمل.. وأخلاقيات العمل توجب على أصحاب الأعمال مقابلة الإحسان بالإحسان وتحرّم عليهم البخس أو الاستغلال.

وهكذا ينال العمال حقوقهم حتى دون مطالبة لأن حقوقهم تلك هي واجبات أصحاب الأعمال كما يظفر أصحاب الأعمال بحقوقهم في الإتقان والمهارة الخ.. لأنها واجبات العمال ويفترض أن يتم هذا بالنسبة للفريقين ما ظلت آليات أخلاقيات العمل في الإسلام تعمل بانتظام.

ولكن لما كان الضعف الإنساني متمكنا في النفوس وكان إغراء الربح طاغيا والميل للتهاون وبذل الجهد الأقل غالبا، **فإن الإسلام وضع المعيار الذي على أساسه تتم التسوية ويحدث التقابل ما بين الواجبات والحقوق. وهذا المعيار هو العدل الإسلامي** المستمد رأسا من القرآن الكريم ومن الصحيح الثابت من السنّة ومن سياسات الخلفاء الراشدين.

والنصوص التي تتناول هذا العدل عديـدة وصـريحة وجازمة والمطلـوب هو ترجمتها إلى مـواد وتقنينهـا. فهو أبعد شـيء عن أن يكـون شـعارا أجـوف يـراد به التخـدير أو الخداع. انه قواعد عملية وسـوابق فعلية وهو بعد هـذا روح الإسـلام والطـابع الرئيسي والعام له.

والخصيصة التي يتّسم بها العدل الإسلامي ويتميز بها عن دعاوي العدل الأخرى هي أنه موضوعي فلم يضعه أصـحاب الأعمـال ولم تضـعه الحكومة بل ولم يضـعه العمـال ولكن الله تعالى هو الذي قرره في كتابه وبالوحي إلى نبيـه. ومن هنا فلا يمكن الطعن فيه بدعوى الذاتية التي أفسدت كل صور العدل المزعومة التي وضعها ويدّعيها طـرف من الأطراف.

ولما كـان الجميع ينطلقـون من نقطة واحـدة هي العمل المفـروض والمحكـوم بأخلاقيـات مبدئية واحـدة ويسـتهدفون غايـات محكومة أيضا بالأخلاقيـات السـابقة نفسـها فـإن النتيجة أن المجتمع يسـير في اتجـاه واحد. العامل يسير، وصاحب العمل يسير، والدولة تسير، والجميع يكسب من هـذا السـير تبعا لقواعد العـدل الإسـلامي ويتم هـذا بنعومة واتسـاق وتنحسم شأفة التناقضات والصراعات التي تأتي من اختلاف المنطلقات وتعارض الغايات وانعدام الأخلاقيات الواحدة.

وبهذا يتحقق السـلام الاجتمـاعي والتنمية الاقتصـادية في وقت واحد وبأفضل ما يتصور.

ولا يتسع المجال للإسهاب في إيضاح تفاصيل واجبـات الجميع (الـتي يصـبح بعضـها حقوقا لآخـرين) ولكن يمكن القـول بصـفة عامة أن كل ما يـدخل في إتقـان العمل والاقتصاد في الوقت والموارد بحيث يتسعا لأكـبر إنتـاج ممكن مما يـدخل في واجبـات العامل. وأن راحته والبعد عن أي صورة للإرهاق أو الاستغلال وضـرورة احـترام كرامة العامل ومنحه المقابل العادل، كل هذا يـدخل في واجبـات صـاحب العمـل، وأن إعـداد البيئة المناسبة وتهيئة المناخ العام وإتاحة فرص التـدريب واكتسـاب المهـارات وتوجيه الاقتصاد والإنتاج وجهة إسلامية وتصحيح الخلل والانحـراف في المسـار مما يـدخل في واجبـات الدولة الإسـلامية وتصـبح بالتـالي حقوقا للمواطـنين تجاهها وهي في كل هـذا محكومة بأخلاقيات العمل وتحقيق العدل الإسلامي.

والالـتزام بهـذه الواجبـات وتطبيقها يتطلب تغيـيرا في رسم السياسة الاقتصـادية وتحديد ظروف وشروط وعلاقات العمل.

وقد يقتضي الأمر إشارة خاصة إلى قضية الأجور، فـالأجور قد لا تعـني في المجتمع الرأسمالي إلا أرقاما في الميزانية وبنـدا من بنـود التكـاليف في المشـروع، ولكنها في مجتمع إسـلامي تنبض بالحيـاة وتمثل الطعـام والشـراب والسـكن والكسـاء والتعليم والترفيه وتلك البسمة الـتي ترتسم على الشـفاه والشـعور بالرضا عند ضـمان إشـباع هذه الاحتياجات والأمن من كابوس الحاجة والضـيق من همـوم الدَيْــن: ﴿أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَـوْفٍ﴾ "اللهم زدها نعمة واحفظها من الزوال".

وبالتالي فيجب أن تضمن الأجور هذه الحياة وأن تترجم هذه البنود إلى أرقـام تمثل في مجموعها الأجر القياسي للعامل[10] الذي يكفل على الأقل الحياة الوسط للعامل (لا وكس ولا شطط).

وهذا **المعنى الإنساني للأجر** جـزء من صـميم المجتمع الإسـلامي الـذي يقـوم على التكافل وينظر إلى المسلمين على أنهم "كأسنان المشط يسعى بذمتهم أدناهم" أو اللبنات في البناء أو الأعضاء في الجسم، كما أنه جزء من أخلاقيات العمل.

من هنا يجب أن توضع الأجــور على أسس إنســانية لا حســابية وإلا يســمح للعوامل الاقتصــادية بــأن تحيف على الحقــوق الإنســانية أو المســتويات المعيشــية – بل على العكس – يجب أن يكــون على هــذه العوامل الاقتصادية أن تكيف نفسها تبعا للمستويات الإنسانية.

ولكن هـذا المعـنى الإنسـاني قد يتبـاين مع ما تقضي به العدالة في قضـية الأجـور. فطبقا لقواعد العدالة يجب أن ينظر إلى الأجـور من زاوية الإنتـاج، فمن يعمل عملا مساويا لعمل آخر يفـترض أن ينـال أجـرا ممـاثلا ومن يعمل عملا أقل يتقاضى أجرا أقل وهو ما يتفق مع فكرة انبثاق الحقوق من الواجبات. بيد أن هذا قد لا يؤدي بالضـرورة إلى تحقيق المسـتوى المعيشي (الوسـط) المنشـود إذ قد يكـون أحد العمال متزوجا ووالدا لعدة أبناء وهي وقائع لا أثر لها في ناحية الإنتاجية وبالتالي الأجر. ومن هنا فيفـترض أن يُكَمَّل الأجر من بنـود الرعاية الاجتماعية الإسـلامية الـتي تكـون "الزكاة" أبرز مصادرها وبهذا نجمع بين تحقيق العدالة والكفاية.

ويقارب هذا الجانب من جوانب قضية الأجور نقطة المشاركة في الربح. فنحن نرى أن الأصول الاجتماعية الاقتصادية للإسلام تؤيد هذا الاتجاه، فالإسلام ينظر إلى العمــال والإدارة كشريكين مصالحهما واحدة ويعلي المعـنى الأخلاقي الاجتمـاعي على المعـنى المادي والفردي.

* * *

- والأصل الثـاني للتعـرف على أحكـام علاقـات العمل هـو، كما ذكرنا النصوص التي تحكم العلاقة ما بين الخادم والسـيد أو العبد والسـيد، وهي عديـدة، وصـريحة، خاصة من السـنة، وهي تحمي الخـادم والعبد جسـدا وروحا حماية كاملة وتكفل له مستوى من المعاملة يكاد يرقى به إلى مرتبة المسـاواة بالسـيد، وهو ما تقضي به الأحاديث النبوية التالية.

- لا يقولن أحـدكم عبـدي وأمـتي - كلكم عبـاد اللـه، وكل نسـائكم إمـاء الله - ولكن فتـاي وفتـاتي. ونهى المملـوك والجارية أن يقـولا ربي وربـتي، ولكن سيدي وسيدتي.
- وعن أبي مسعود البدري رضي الله عنه، قال كنت أضرب غلاما لي بالسوط فسـمعت صـوتا من خلفي يقـول اعلم أبا مسـعود، فلم أفهم الصـوت من الغضب، فلما دنا مني إذا هو رسول الله ﷺ فإذا هو يقول اعلم أبا مسـعود أن الله تعـالى أقـدر عليك منك على هـذا الغلام فقلت لا أضـرب مملوكا بعـده

[10] **(10) يجب ألا نخلط بين الأجر القياسي وبين الحد الأدنى للأجور والمفروض أن يكون الأجر القياسي بين الحد الأدنى والحد الأعلى للأجور.**

أبدا. وفي رواية، فقلت يا رسول الله هو حر لوجه الله تعـالى فقـال أما أنك لو لم تفعل للفحتك أو لمستك النار.

- وعن زاذان وهو الكنـــدي مـــولاهم الكـــوفي، قـــال أتيت ابن عمر وقد اعتق مملوكا له فأخذ من الأرض عودا أو شيئا فقال مالي فيه من الأجر ما يساوي هـذا سـمعت رسـول الله يقـول من لطم مملوكا له أو ضـربه فكفّارته أن يعتقه رواه أبو داود واللفظ له ورواه مسلم ولفظه قـال من ضـرب غلاما له حدا لم يأته أو لطمه فإن كفّارته أن يعتقه.
- وعن معاوية بن سـويد بن مقـرن قـال لطمت مـولى لنا فـدعاه أبي وقـال اقتص منه، فأنا معشر بني مقرن كنا سبعة على عهد رسول الله وليس لنا إلا خـادم ةفلطمها رجل منا فقـال رسـول الله اعتقوها قـال إنه ليس لنا خادم غيرها قال فتخدمهم حتى يستغنوا، فإذا اسـتغنوا فيعتقوها رواه مسـلم وأبو داود واللفظ له والترمذي والنسائي.
- وعن عمـار بن ياسر رضي الله عنه قـال قـال لي رسـول الله من ضـرب مملوكه ظلما قيد منه يوم القيامة رواه الطبراني ورواته ثقات.
- وعن عائشة رضي الله عنها قـالت جـاء رجل فقعد بين يـدي رسـول الله فقـال إن لي مملـوكين يكـذبونني ويخونـني ويعصـونني واشـتمهم وأضـربهم فكيف أنا منهم فقـال رسـول الله إذا كـان يـوم القيامة يحسب ما خـانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم بقدر ذنوبهم فـإن كـان كفافا لا لك ولا عليك وإن كـان عقابك إيـاهم فـوق ذنـوبهم اقتص لهم منك الفضل فتنحى الرجل وجعل يهتف ويبكي فقال له رسول الله أما تقـرأ قـول الله تعـالى وَنَضَـعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَـالَ حَبَّةٍ مِنْ خَـرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِـبِينَ فقـال الرجل يا رسـول الله ما أجد لي ولهؤلاء خيرا من مفارقتهم أُشهدك أنهم أحرار.
- وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت كان رسول الله في بيـتي وكـان بيـده سـواك فـدعا وصـيفة له أو لها حـتى اسـتبان الغضب في وجهه وخـرجت أم سـلمة إلى الحجـرات فوجـدت الوصـيفة وهي تلعب ببهيمة فقـالت ألا أراك تلعـبين بهـذه البهيمة ورسـول الله يـدعوك فقـالت والـذي بعثك بـالحق ما سمعتك فقال رسول الله لـولا خشـية القـود لأوجعتك بهـذا السـواك! رواه أحمد بأسانيد أحدها جيد واللفظ له ورواه الطبراني بنحوه.
- وعن عمـــرو بن شـــعيب عن أبيه عن جـــده رضي الله عنه قـــال جـــاء رجل مستصرخ إلى رسول الله[11] فقـال جارية له يا رسـول الله[12] فقـال ويحك

[11] **(11) هو روح بن دينار.**
[12] **(12) أي لسيده واسمه زنباع.**

مالك قال شرا.. ابصر لسيد جارية[13] فغار فجب مذاكيره فقـال رسـول الله ﷺ اذهب فأنت حر فقال يا رسول الله على من نصرتي قال نصـرتك على كل مسـلم أخرجه أبو داود (الجب القطع والمـذاكير جمع ذكر على غـير قيـاس) (تيسير الوصول).

- وعن المعــــرور بن ســــويد قــــال رأيت أبا ذر وعليه حلة وعلى غلامه مثلها فسـألته عن ذلك فقـال سـمعت رسـول الله ﷺ يقـول هم إخـوانكم وخـولكم جعلهم الله تعالى تحت أيديكم فمن كان أخـوه تحت يـده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفــــوهم من العمل ما يغلبهم، فــــإن كلفتمــــوهم فـأعينوهم عليه أخرجه الخمسة إلا النسـائي (الخـول حشم الرجل واتباعـه) (تيسير الوصول).
- وعن علي رضي الله عنه قال كـان آخر كلام النـبي ﷺ الصـلاة اتقـوا الله فيما ملكت أيمــــانكم رواه أبو داود وابن ماجة إلا أنه قــــال الصــــلاة، وما ملكت أيمانكم.. وروي بن ماجة وغـيره عن أم سـلمة قـالت أن رسـول الله ﷺ كـان يقــول في مرضه الــذي تــوفي فيه "الصــلاة، وما ملكت أيمــانكم" فما زال يقولها حتى ما يفيض لسانه.
- وعن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ ثلاثة أنا خصمهم يـوم القيامة رجل أعطى بي ثم غدر ورجل باع حرا فأكل ثمنه ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يعطه أجره (البخاري).
- وعن عثمــان رضي الله عنه قــال لا تكلفــوا الصــبيان الكسب فــانكم مــتى كلفتموهم الكسب سرقوا، ولا تكلفوا الأمة غير ذات الصنعة الكسب، فـانكم متى كلفتموها كسـبت بفرجهـا، وعفـوا إذ اعفكم الله وعليكم من المطـاعم بما طاب منها (أخرجه مالك).
- اعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه.
- من استأجر أجيرا فليعلمه أجره.
- وعن أبي سعيد الخـدري أن النـبي ﷺ نهى عن اسـتئجار الأجـير حـتى يـبين له أجره.

* * *

فهـذه النصـوص عن جـوانب عديـدة من التعامل مع الخـدم يمكن أن تسـتلهم عند تحديد جوانب مماثلة من علاقات العمـل، مع ملاحظة أن الطـابع المثـالي في الحقـوق هو جزء من أخلاقيات العمل الإسلامي، ويفترض أن يستتبعه عرفان وتقدير من العمال وإقامة للعلاقات أو تسوية الخلافات في مناخ من السـلام الاجتمـاعي. وعلى كل حـال فما لم يدرك كله، لا يترك كله.

---

13 **(13) وفي ابن ماجة " قال سيدي رآني أقبل جارية له "**

وقد يشبه هذا إلى حد ما أن الإسلام عندما وضع الحدود جعل العقوبة التي توقع على العبد نصف العقوبة التي توقع على الحر، وليس من فرق بين هذا وذاك إلا انتقاص الحرية. فكان الإسلام جعل الحرية – ومدى توفرها أو انتقاصها – عاملا مؤثرا عند إصدار الأحكام ؛ ومن المسلم به أن العمال وإن كانوا يتمتعون بالحرية القانونية – إلا أنهم قلما يتمتعون بالحرية الاقتصادية، وأنهم في مرحلة الرأسمالية الضاربة.. كانوا مجبرين ومكرهين على الاستسلام لإرادة الرأسمالي لأن رفض ذلك يعني مجابهة المجاعة. ولعلهم، في هذه المرحلة – كانوا أسوأ – من العبيد.. فهل يمكن أن تطبق على مثل هؤلاء العقوبة التي تطبق على الذين يرتعون في بحبوحة الثراء والرخاء ؟

بالإضافة إلى هذه النصوص، فإن القرآن والحديث عالجا جوانب عديدة من التعامل التجاري وحرّما كل الممارسات التي تتضمن عنصرا من عناصر الضرر أو الغبن والاستغلال، وهذه يمكن استلهامها، لأن ما يطبق حماية للمستهلك يمكن أن يطبق حماية للعامل، ولأن استبعاد وسائل الغبن والاستغلال الخ**...** قضية مبدئية لا تتغير في التجارة عنها في الصناعة أو الخدمات أو أي نشاط آخر. ومن هنا فيفترض أن تكون هذه النصوص محل دراسة وعندئذ فيغلب أن توحي إلينا بمبادئ وقواعد لم يلتفت إليها القدماء من المفسرين أو الفقهاء الذين لم تعرض لهم مشاكل العصر.

وكما سبق وأشرنا، فإن الآية **282** من سورة البقرة التي عالجت الدَيْن إلى أجل مسمّى، وضرورة الكتابة، والاشهاد الخ... يمكن أن تنسحب على العقود ذات الالتزام المؤجّل، وقد تنبه إلى ذلك المرحوم **الشهيد عبد القادر عودة** بصفة عامة، في كتابه **"التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي"** وعالجنا تفسير الآية في كتابنا **"الإسلام والحركة النقابية"** بحيث ظهر أن الآية تكاد تكون تجسيما للحكم في "العقود الجماعية" التي تعقدها النقابات باسم العمال، وتعد محور العمل النقابي في المجتمعات ذات الاقتصاد الحر..[14] بل وأثبتنا أن العقود المتبعة حاليا في معظم الدول تخالف نصوص الآية.

وهناك نصوص في القرآن والحديث يمكن أن تعد أصولا تشريعية يستند إليها في تأصيل كثير من الأحكام مثل "المؤمنون عدول يسعى بذمتهم أدناهم"، "لا ضرر ولا ضرار".. ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾، ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ الخ...

* * *

ويبقى بعد هذا المصدر الأعظم لاستلهام قواعد علاقات وسياسات العمل في الإسلام، ألا وهو مقاصد الشريعة وروح الإسلام والأهداف العظمى التي من أجلها أنزله الله تعالى للناس ليسود القسط والعدل، ولإنقاذ الناس من ظلمات الجهالة إلى نور المعرفة.. ومن عبادة الطاغوت والحكام والأوثان إلى عبادة الله الرحيم الرحمن ألخ... وهذا المصدر على أنه أعظم المصادر فإنه لم يُلْمَس لأن معالجته تفترض الاجتهاد

---

[14] **(14) انظر هذه المعالجة في كتابنا الإسلام والحركة النقابية، الصفحات 76 – 81.**

وإنعام النظر واستخلاص الأحكام.. الخ. وقد تقاعست همم فقهاء المسلمين عن ذلك ورضوا أن يستلخص الأحكام لهم أسلاف مضى عليهم عشرة قرون.

وعلى سبيل المثال فنحن إذا طلبنا إشارات عن "النقابة" في كتب الفقه، أو في السنة، أو حتى فى القرآن فقد لا نجد (حتى وإن جاء ذكر "النقيب" في القرآن). ومن الطبيعي أن لا نجد للنقابات ذكرا لأن النقابات إنما ظهرت منذ ثلاثة قرون كرد فعل للاستغلال الرأسمالي، الصناعي ولكننا نستطيع – بكل اطمئنان – أن نقطع بأن النقابات تنظيم لا يتعارض مع الإسلام – بل هو يتفق معه. لأن النقابات من ناحية الشكل تنظيم جماعي، والجماعة مفضلة في الإسلام على الفرد ولأنها من ناحية الأهداف تستهدف العدل وإنصاف المستضعفين ونيلهم لحقوقهم وهذه من صميم أهداف الإسلام..، ولأن وسائلها حتى عندما تصل إلى المقاطعة والإضراب ليست إلا صورا من المقاومة السلبية في سبيل نيل هذه الحقوق، والمقاومة الإيجابية مشروعة في الإسلام لنيل الحقوق: "ومن مات دون ما له فهو شهيد". وهذا الحديث يفتح باب الشهادة للنقابيين ولكل الذين يدافعون عن حقوقهم فضلا عن عشرات الأحاديث والآيات التي تصدع كلها بمقاومة الظلم وانتهاك الحقوق.

مثال آخر. ان الإسلام كقاعدة عامة يكيف الحرية في مجال العلاقات والحقوق بمعيار العدل وهو لا يسيغ ممارسة الحرية اعتباطا ولا يسمح بها إذا جاوزت إطار الحقوق. يستوي في ذلك الدولة وسيادتها المزعومة أو الفرد وشعاره "بمالي أفعل ما بدا لي". ومن هنا، فإن أي قرار تصدره الإدارة لمجرد أن هذا يدخل في دائرة حقها في إصدار القرار "دون إبداء الأسباب"، يمكن أن يكون محلا للطعن إذا جاوز إطار العدل أو تضمن ضررا لأي طرف من الأطرف. ولابد لأي قرار تصدره أي جهة أن يكون قائما على تسبيب سليم، وأن لا يتضمن ضررا لآخر، وأن يكون لأي طرف يمسه حق الانتصاف.

ولكن قد يكون أهم من هذا كله وأعمّ عند تحديد العلاقات، أن الإسلام قام أولا وقبل كل شيء لتحقيق العدل. وأن الفيصل في علاقات العمل ما بين العمال وأصحاب الأعمال والمستهلكين، يجب أن يكون العدل الإسلامي. وهذا يمثل منطلقا جديداً كل الجدة لبناء علاقات العمل. ففي المجتمعات ذات الاقتصاد الحر تبني العلاقات الصناعية على أساس "تصادم" منطلق العمال.. مع منطلق أصحاب الأعمال. وقد تتدخل الحكومة لحماية المستهلك أو للحفاظ على الأمن والاقتصاد القومي دون نجاح كبير. وفي المجتمع الشيوعي تسود مشيئة الحزب الحاكم الذي لا معقب لإرادته. وهذه كلها منطلقات "ذاتية" أما المنطلق الإسلامي، فهو موضوعي يقوم على العدل الذي يفترض أن ينزل عليه ويلتزم به الجميع. أصحاب العمل، والعمال، والحكومة. وهذه هي الإضافة التي يقدمها – باسم الإسلام – **الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل** ويرى فيها وحدها الحل لأزمة النقابية في المجتمعين الرأسمالي والشيوعي على سواء – وجلاها في عدد من كتبه ورسائله[15] وينص عليها دستوره.

---

15 **(15) انظر كتابنا "أزمة النقابية" وكذلك "الإسلام والحركة النقابية".**

الفصل الرابع
مضمون العمل
أصل القيمة وشمول الأداء

إذا كان العمل – كما ذكرنا في الفصل الأول – هو معيار الحساب ثوابا أو عقابا **فما هي دلالة ذلك في لغة الاقتصاديين المحدثين؟ إن الدلالـة الـتي يمكن أن تستمد من هذه الواقعة هي أن الإسلام يجعل العمل هو أصـل القيمـة ...** خاصة إذا أضفنا إلى هـذه الحقيقـة.. حقيقـة أخـرى هي أن الإسـلام لا يعطي الجـاه أو النسب أو الوراثة أو المظهر أية قيمة ولا يجعل لها عند الحساب وزنا. بـل إن الإسـلام لا يعطي المال في حد ذاته قيمة ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْـدَنَا زُلْفَى﴾ وإنمـا تنسـب القيمـة لطريقـة الحصـول على هـذا المـال والهـدف منـه.. ثم طريقـة التصرف فيه. ففي المجتمع الرأسـمالي يعـد المـال الأصـل الأول الثمين، أو "الـرأس" ويطلق عليه مجمعا ومتراكما "رأس المال" الذي تدور عليـه بقيـة الأصـول.. وتبـدأ بـه المشروعات ويضفي الاحترام والمنزلة الاجتماعية على صاحبه. فالغني يحـترم لثروتـه حتى وإن حصل عليها بأحط الوسائل – "فالنقود لا رائحة لها" وحتى إن كان جاهلا، لأنه يمكن أن يستأجر العلماء... والفقير يُزدري لفقره "حتى وإن كان عالما" فاضـلا. ولكن الأمر يختلف في المجتمع الإسلامي فلا يمكن الحصول على مال إلا بفضـل العمل[16].. ومن خلال وسائل مشروعة، ولا يجوز التصرف فيه إلا خلال قنـوات مشـروعة.. وهـذه القنوات من عمل وإخلاص وابتغاء الخدمـة.. مـع الاسـتمتاع المشـروع.. هي مـا تعطي المال أهميته، وما يستمد منها قيمته. أما المال في حـد ذاتـه أو خـارج هـذه الأطـر فلا يغني شيئا.

﴿وَمَـا يُغْنِي عَنْـهُ مَالُـهُ إِذَا تَـرَدَّى﴾ ، ﴿مَـا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَه﴾ ، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾.

وأشد من هذا كله صراحة الآية ﴿**وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلا مَا سَـعَى**﴾ إذ هي تنفي عن الإنسان إلا ما يسعى له ويقوم به – أي العمل.

وتحريم الإسلام للربـا.. وتحليلـه للـبيع دليـل آخـر على أن العمـل هـو أصل القيمة، لأن الفـرق الرئيسـي بين الربـا.. والـبيع (أو مختلـف صـور النشاط المباح) هو أن المال في الحالة الأولى يكسـب دون عمـل يقـوم به صاحبه.. وأنه في الحالة الثانية إنما يكسـب بمـا يقـوم بـه صـاحبه من عمل. فافتقاد العمل في الربا من أهم أسـباب التحـريم..[17] واصـطحاب العمل في البيع هو سبب التحليل، ومـا هـذا إلا لأن العمـل يمثـل إضـافة

[16] **(16) ما عدا الميراث بالطبع وهو استثناء وعدالة توزيعه تفتته بين الورثة.**

منشئة ويرتبط بالإنسان ويستهدف إثراء الحياة وإشباع الاحتياجات وتقديم الخدمات وتفريج المتاعب والكربات في حين يقترن الربا بالسلبية آونة.. والاستغلال آونة أخرى، ويعزز هذا أن الإسلام يحرم كسب مال دون بذل جهد مقابله "كخياط يتقبل ثوبا للخياطة بدينار فيعطيه لغيره ليخيطه بنصف دينار ويأخذ هو الفرق دون أن يساعده في عمله ودون أن يعطيه خيوطا أو أزرارا أو غير ذلك"[18]. ومثل هذا الحكم يمكن أن يقضي على كل صور "التعاقد من الباطن" التي تتطفل على الإنتاج وتكسب دون القيام بأي عمل.

ويشبه تحريم الإسلام للربا تحريمه **الاكتناز** لأنه تعطيل عن "عمل" الذهب والفضة وقيامهما بدورهما كأداة للتعامل وكذلك تحريمه "**احتجان**" الأرض لأنه تعطيل عن استخدامها واستثمارها بفكرة بيعها عند ارتفاع أسعار الأراضي، وأقوى من هذا إشارة الحديث إلى أن **من "أحيا أرضا مواتا فهي له"**. فالحديث يشير إلى الأرض دون العمل باعتبارها "مواتا" ثم يشير إلى العمل باعتباره "إحياء" للأرض، وبالتالي فإن من يقوم بهذا يصبح مالكا لها. وأخيرا فيمكن الإشارة إلى تحريم الإسلام للقُسامة. وهي أن يأخذ شخص مالا أو أجرا لقاء تشغيله آخرين. فهذا يستغل العمل دون أن يعمل هو.. كما يستغل المرابي المال دون أن يعمل هو، ونص الحديث "عن أبى سعيد الخدرى قال رسول الله إياكم والقسامة قلنا وما القسامة قال الرجل يكون على فئام من الناس فيأخذ حظ هذا وحظ هذا" أخرجه أبو داوود[19]. **ونجد "القسامة" الحديثة في "متعهد توريد الأنفار" أو الكفيل في بعض الدول الإسلامية. فهما معا يكسبان من عمل العمال – دون أن يعملا هما شيئا.**

وفي كل هذه التحريمات فإن الإسلام يصدر عن أصل واحد هو تحريمه للبطالة والاستغلال والكسب دون عمل واعتباره العمل أصل القيمة.

ولما كان العمل أصل القيمة، فإن الإسلام يفترض في الإنسان السوي وفي المجتمع السوي العمل. "قيمة كل امرئ ما يحسنه" و "إنما يقدس الإنسان عمله."[20] وكان كبار الصحابة أبو بكر وعمر بن الخطاب وعثمان وعلي وسعد بن أبي وقاص وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف الخ.. من

---

17 **(17) هذا تكييف جديد لتحريم الربا خلاف ما يؤسس عليه التحريم عادة من استغلال وهو أعم من الاستغلال لأن الفائدة المصرفية التي تقدم للمودع قد ينتفي منها عناصر الاستغلال، وبالتالي يمكن تقبلها، ولكنها ترفض عندما يؤسس التحريم على أساس انتفاء العمل.**

18 **(18) حاشية ابن عابدين. استشهد بها في بحث "الاحتراف وأثره في الفقه الإسلامي" د. محمد رواس قلعجي.**

19 **(19) أنظر تيسير الوصول ص145 الجزء الرابع (المكتبة التجارية) وطبع بالمطبعة السلفية وقال محققه آخر الحديث القُسامة (بضم القاف) ما يأخذه القسام جريا على عاده السماسرة دون الرجوع إلى أجرة المثل.**

20 **(20) جاء هذا التعبير البليغ على لسان سلمان الفارسي رضي الله عنه عندما كتب أبو الدرداء إليه "هم إلى الأرض المقدسة" فقال سلمان "إن الأرض لا تقدس أحدا "وإنما يقدس الإنسان عمله" في قصة طويلة – جاءت في تيسير الوصول (ص53 ج 3).**

أصـحاب الحــرف والمهن. ومــع أن صــحبة النــبي كــانت أحب إليهم من أبصــارهم وأسماعهم، فإنهم لم يروا أن ذلك يوجب عليهم هجر أعمالهم فكانوا سحابة النهـار في السوق. وعندما ذكر عمر بن الخطاب بما لم يسـمعه من النـبي قـال "ألهـاني الصـفق في الأسـواق". ولم يعتمـد المهـاجرون على كـرم الأنصـار الـذين كـانوا على اسـتعداد للنزول لهم عن نصف أموالهم، ولكنهم مارسوا حرفهم.. بل إن الأنبياء أنفسـهم كـانت لهم حرفهم المعروفة. فنوح كان نجـارا وداود حـداداً وإدريس نسـاجا وموسـى راعيـا.. كمـا كـان محمـد راعيـا وتـاجرا **وقال "مـا بعث اللـه من نـبي إلا رعى الغنم فقالوا حتى أنت يا رسول الله. قال نعم كنت أرعى على قراريــط لأهــل مكة".**

ولم يــر الإسـلام أن "التوكـل" ينـافي العمـل. فعنـدما أخـبر النـبي أصحابه بأنه ما من أحد إلا وقـد كتب مقعـده من النـار أو الجنـة قـالوا يـا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل فرد أعملوا فكل ميسر لمــا خلق له أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمـل السـعادة، وأمـا من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل الشـقاوة ثم قـرأ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى الآيـة.. (متفـق عليـه). فـالنبي يوضـح لهم أن العمل هو سبيل هذا المصـير، وعلى أساسـه تحـدد. فلا يتصـور أن يكـون هناك توكـل دون عمـل ومن هنـا أيضـا وجـه الإعـرابي "اعقلهـا وتوكـل" فالتوكل لا ينفي العمل، ولكنه يتبعه. وحتى الحـديث المشـهور "لـو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانــا" فــإن اللــه تعــالى لم يــرزق الطــير وهي جاثمــة أو في وكناتهــا وأعشاشها، وكان عليها أن تغدو وتروح حتى يرزقها الله.

كذلك يتفق مع هذا – أي جعـل الإسـلام العمـل أصـلا للقيمـة – كراهـة الإسلام للبطالة وذمه للمسألة.

وقد شبه النبي المسألة تشبيها مروعا حقيق بأن يكف صاحبها عنهــا إلى الأبد **"لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى اللـه وليس بوجهـه ِمزعـة لحم" وقال "لأن يأخذ أحـدكم أحبلـه ثم يـأتي الجبـل فيـأتي بحزمـة من حطب على ظهره فيبيعها خيرا له من أن يسأل الناس أعطـوه أو منعـوه"** وهـذا هو ما طبقه الرسول عندما جاءه رجل من الأنصار يسأله فقال له: "أما في بيتك شيء قال بلى حلس نلبس بعضه ونبسط بعضه وقعب نشرب فيه الماء قال آتني بهما فأتـاه بهما فأخذهما بيده وقال من يشتري هذين فقال رجل أنا أخذهما بدرهم قـال رسـول الله من يزيد على درهم مرتين أو ثلاثا فقال رجل أنا أخذهما بدرهمين فأعطاهما اياه وأخذ الـدرهمين فأعطاهمـا للأنصـاري وقـال اشـتر بأحـدهما طعامـا فانبـذه إلى أهلـك واشتر بالآخر قدوما فأتني به فأتاه به فشد فيـه رسـول اللـه عـودا بيـده ثم قـال لـه اذهب فاحتطب ولا أرينك خمسة عشر يوما ففعل. ثم جاءه وقد أصـاب عشـرة دراهم

فاشترى ببعضها ثوبا وببعضها طعاما فقال له رسول الله هذا خير لك من أن تجئ المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة ان المسألة لا تصلح إلا لذي فقر مدقع أو لذي غرم مفظع أو لذي دم موجع" (أخرجه أبو داود وهذا لفظه والترمذي باختصار).

وقال النبي أشد الناس عذابا يوم القيامة المكفي الفارغ، والمكفي هو الذي يكفيه غيره مسألة معيشته والفارغ المتعطل الذي استمرأ الكسل والتعطل.

* * *

على أن المضمون الاقتصادي للعمل في الإسلام الذي يجعل العمل أصل القيمة ليس إلا جانبا من جوانب هذا المضمون. **أما الجانب الآخر فهو شمول العمل الإسلامي لكافة صور العمل على نقيض المذهب السائد في الفكر الحديث الذي يحصر العمل في العمل "الاقتصادي" أو "العمالي" أو "الأجري" أو "النقابي".** فالمضمون الإسلامي للعمل يغطي كل من "يعمل عملا صالحا" سواء كان موظفا أو طالبا أو ربة بيت أو حرفيا أو تعاونيا أو متطوعا لعمل خيري فكل هؤلاء يعدون "عمالا" ويدخل عملهم في إطار العمل الإسلامي..

والتتبع التاريخي لدلالة كلمة "عمال" يوضح كيف أنها تدهورت مع تدهور المجتمع الإسلامي بعد ازدهاره فترة النبوة والخلافة الراشدة التي كانت كلمة "عمال" فيها تطلق على ولاة الأمصار والقائمين على الزكاة. ثم بدأت تتدهور وتتقلص تدريجيا حتى كادت تنحصر في العمل اليدوي[21]. ونحن في الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل نجد عناء أي عناء في أن نفهم الناس أن كلمة "عمل" وعمالا لا تقتصر في الإسلام على عمل الصناعة أو أعضاء النقابة أو أصحاب الياقات الزرقاء، ولكنها تضم كل فئات المجتمع التي تعمل عملا صالحا.

ويمكن أن نلحظ بدايات هذا التدهور في فهم دلالة كلمة العمل في كتابة بعض كتاب القرن الخامس الهجري "كالماوردي" الذي تحدث عن الصناعة باعتبارها صناعة فكر وصناعة عمل وصناعة مشتركة متأثرا بالطبع بالفهم الإسلامي الأولي الذي يعطي الكلمة معنى الشمول، ولكنه – متأثرا ببدء التدهور – اعتبر أن صناعة "العمل" أحط من صناعة الفكر رغم الأحاديث النبوية التي تعطي العمل اليدوي أفضلية.

وكلام الماوردي مع هذا له أهمية لأنه يصور لنا "عالم العمل" في ذهن فقيه يمثل عصره، ويكون من الخير أن ننقل النبذة كلها هنا:

"ثم أنه جلت قدرته جعل سد حاجتهم وتوصلهم إلى منافعهم من وجهين **بمادة وكسب**. فأما المادة فهي حادثة عن اقتناء أصول نامية بذواتها، وهي شيئان نبت نام

---

21 **(21) وهذا يناقض ما ينتهي إليه تتبع دلالة الكلمة (عمال) في المجتمع الأوروبي فقد نظر إليهم، في الثورة الصناعية كما لو كانوا حثالة المجتمع ثم أخذت الدلالة تتقدم وتتسع وتضم فئات جديدة من الكتبة والموظفين والمهنيين حتى كادت تشمل العاملين جميعا.**

وحيوان متناسل وقال الله تعالى ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى﴾ قال أبو صالح أغنى خلقه بالمال وأقنى جعل لهم أقنية وهي أصول الأموال. وأما الكسب فيكون بالأفعال الموصلة إلى المادة والتصرف المؤدي إلى الحاجة وذلك من وجهين أحدهما تقلب في تجارة والثاني تصرف في صناعة. وهذان هما فرع لوجهي المادة فصارت أسباب المواد المألوفة وجهات المكاسب المعروفة من أربعة وجوه **ثمار زراعة ونتاج حيوان وربح تجارة وكسب صناعة**. وحكى الحسن بن رجاء مثل ذلك عن المأمون قال سمعته يقول معايش الناس على أربعة أقسام زراعة وصناعة وتجارة ومال فمن خرج عنها كان كلا عليها. وإذ قد تقررت أسباب المواد بما ذكرناه فسنصف حال كل واحد منها بقول موجز.

أما الأول من أسبابها وهي الزراعة فهي مادة أهل الحضر وسكان الأمصار والمدن والاستمداد بها أعم نفعا وأوفى فرعا، ولذلك ضرب الله تعالى المثل بها فقال ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾. وروي عن النبي ﷺ أنه قال "خير المال عين ساهرة لعين نائمة" وقال ﷺ "نعمت لكم النخلة تشرب من عين خرارة وتغرس في أرض خواره وقال ﷺ في النخل "هي الراسخات في الوحل المطعمات في المحل" وقال بعض السلف خير المال عين خرارة في أرض خوارة تسهر إذا نمت وتشهد إذا غبت وتكون عقبا إذا مت. وروى هشام عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قال قال رسول الله ﷺ "التمسوا الرزق في خبايا الأرض" يعني الزرع وحكى عن المعتضد أنه قال رأيت على بن أبي طالب رضي الله عنه في المنام يناولني المسحاة وقال خذها فإنها مفاتيح خزائن الأرض، قال كسرى للموبذ ما قيمة تاجي هذا؟ فاطرق ساعة ثم قال ما أعرف له قيمة إلا أن تكون قطرة في نيسان فإنها تصلح من معايشة الرعية ما تكون قيمته مثل تاج الملك. ولقى عبد الله بن عبد الملك ابن شهاب الزهري فقال أدللني على مال أعالجه فأنشأ ابن شهاب يقول:

تتبع خبايا الأرض وادع مليكها ... لعلك يوما أن تجاب فترزقا
فيؤتيك مالا واسعا ذا متانة ... إذا ما مياه الأرض غارت تدفقا

وقد اختلف الناس في تفضيل الزرع والشجر بما ليس يتسع كتابنا هذا لبسط القول فيه غير أن من فضل الزرع فلقرب مداه ووفور جداه، ومن فضل الشجر فلثبوت أصله وتوالي ثمره.

وأما الثاني من أسبابها وهو نتاج الحيوان فهو مادة أهل الفلوات وسكان الخيام لأنهم لما لم تستقر بهم دار، ولم تضمهم أمصار افتقروا إلى الأموال المتنقلة معهم ومالا ينقطع نماؤه بالظعن والرحلة فاقتنوا الحيوان لأنه يستقل بالنقلة بنفسه ويستغني عن العلوفة برعيه ثم هو مركوب ومحلوب فكان اقتناؤه من أهل الخيام أيسر لقلة مؤنته وتسهيل الكلفة به وكانت جدواه عليهم أكثر لوفور نسله واقتيات رسله إلهاما من الله لخلقه في تعديل المصالح فيهم وإرشادا لعباده في قسم النافع بينهم وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال "خير المال مهرة مأمورة وسكة مأبورة" ومعنى

قوله ﷺ مهرة مأمورة أي كثيرة النسل وفيها تأول الحسن وقتادة قوله "أمرنا مترفيهـا" أي كثرنا عددهم، وأما السكة المأبورة فهي النخلة المـأبرة الحمـل، وروي عن النـبي ﷺ أنه قال في الغنم "سمنها معاش وصوفها رياش" وروي عن أبي طبيـان أنـه قـال قـال لي عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما مالك يا أبا طبيان قال قلت عطائي الفـان قـال اتخذ من هذا الحرث والسائبات النتاج. وحكى أن امرأة أتت النبي ﷺ قال يا رسول اللـه إني اتخذت غنما ابتغي نسلها ورسلها وأنها لا تنمي فقال لها رسـول اللـه ﷺ مـا ألوانهـا قالت سود فقال لها عفري. وهذا مثل قوله ﷺ في مناكح الآدميين اغتربوا ولا تضووا.

أما الثالث من أسبابها وهي التجارة فهي فـرع لمـادتي الـزرع والنتـاج فقـد روي النبي ﷺ أنه قال تسعة أعشار الرزق في التجارة والحـرث والبـاقي في السـائبات وهي نوعان تقلب في الحضر من غير نقلة ولا سفر وهـذا تـربص واحتكـار، وقـد رغب عنـه ذوو الأقـدار وزهـد فيـه ذوو الأخطـار والثـاني تغلب بالمـال بالأسـفار، ونقلـة إلى الأمصار فهذا أليق بأهل المروءة وأعم جدوى ومنفعة غير أنه أكثر خطرا وأعظم غررا، فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: "ان المســافر ومــاله لعلى قلـت[22]، إلا مـا وقى اللـه" يعني على خطر وفي التوراة يا ابن آدم أحدث سفرا أحدث لك رزقا.

أما الرابع من أسبابها وهو الصناعة فقد يتعلق بما مضى من الأسباب الثلاثـة وتنقسم أقسامها ثلاثة صناعة فكر وصناعة عمل وصناعة مشتركة بين فكر وعمـل لأن النـاس آلات للصـناعة فأشـرفهم نفسـا متهـيئ لأشـرفها جنسـا، كمـا أن أرذلهم نفسـا متهيئ لأرذلها جنسا لأن الطبع يبعث على ما يلائمه، ويـدعو إلى مـا يجانسـه وحكى أن الاسكندر لما أراد الخروج إلى أقاصي الأرض قال لارسطاطليس اخرج معي فقـال قـد نحل جسمي وضعفت عن الحركة فلا تزعجني قال فما أصـنع في عمـالي خاصـة قـال انظر إلى من كان له عبيد فأحسن سياسهم فوله الجنود. ومن كانت له ضيعة فأحسن تدبيرها فوله الخراج فنبه باعتبـار الطبـع على مـا أغنـاه عن كلفـة التجربـة. **وأشرف الصناعات صناعة الفكـر وأرذلهـا صـناعة العمـل لأن العمـل نتيجة الفكـر وتدبيره. فأمـا صـناعة الفكـر فقـد تنقسـم قسـمين** أحـدهما مـا وقـف على التدبيرات الصادرة من نتائج الآراء الصحيحة كسياسة النـاس وتـدبير البلاد وقـد أفردنـا للسياسة كتابا لخصنا فيه من جمعها ما ليس يحتمل هذا الكتاب زيادة عليها، والثاني ما أدت إليه المعلومات الحادثة عن الأفكار النظرية وقد مضى في فصـل العلم من كتابنـا هذا باب أغنى ما فيه عن زيادة قول فيه.

وأما صناعة العمل فقد تنقسم قسمين عمـل صـناعي وعمـل بهيمي. فالعمل الصناعي أعلاهما رتبة لأنه يحتاج إلى معاطـاة في تعلمـه ومعانـاة في تصـدره فصار بهذه النسبة من المعلومات الفكرية والآخر إنما هو صـناعة كـد وآلـة مهنـة وهي

---

22 **(22) في المصباح المنير "قلت قلتا من باب تعب هلك وتسمى المفاز مقلته بفتح الميم لأنها محل الهلاك، والقلت نقرة في الجبل يستنقع فيها الماء والجمع قلات مثل سهم وسهام" المؤلف.**

الصناعة التي تقتصر عليها النفوس الرذلة وتقف عليها الطباع الخاسئة كما قال أكثم بن صيفي لكل ساقطة لاقطة، وكما قال المتلمس:

ولا يقيـــــم على ضيم يسام به — إلا الاذلان عير الحي والوتـــد

هذا على الخسف مربوط برمتـه — وذا يشـج فلا يرثي له أحـــــد

وأما الصناعة المشتركة بين الفكر والعمل فقد تنقسم قسمين أحدهما أن تكون صناعة الفكر أغلب والعمل تبعا كالكتابة والثاني أن تكون صناعة العمل أغلب والفكر تبعا كالبناء وأعلاهما رتبة ما كانت صناعة الفكر أغلب عليها والعمل تبعا لهذا فهذه أحوال الخلق التي ركبهم الله عز وجل عليها في ارتياد موادهم ووكلهم إلى نظرهم في طلب مكاسبهم وفرق بين هممهم في التماسها ليكون ذلك سببا لألفتهم. فسبحان من تفرد فينا بلطيف حكمته وأظهر لفطنتنا عزائم قدرته.[23] أنتهى.

فالماوردي في هذه النبذة الطويلة يصور لنا عالم العمل في القرن الخامس من الهجرة والحادي عشر من ميلاد المسيح، ويعيد معايش الناس وسد حاجاتهم، والتوصل إلى منافعهم إلى مادة. والمادة هي الأصول النامية بذواتها، وهي عنده نبت نام وحيوان متناسل – أي الزراعة والثروة الحيوانية. أما الكسب فهو العمل، أو الأفعال الموصلة إلى المادة والتصرف المؤدي إلى الحاجة. وهذا يتم بربح تجارة وكسب صناعة. **والصناعة بدورها تنقسم إلى ثلاثة أقسام**: صناعة فكر. وصناعة عمل. وصناعة مشتركة.. فصناعة الفكر تضم سياسة الناس وتدبير البلاد.. أو العلم والفقه. وصناعة العمل أيضا تنقسم إلى عمل صناعي وعمل يهيمي أما الصناعة المشتركة بين الفكر والعمل، فقد تكون صناعة الفكر فيها أغلب مثل الكتابة، أو صناعة العمل فيها أغلب مثل البناء.

وقد لفت انتباهنا في يوم ما أن بعض الفقهاء رأوا أن الشريعة لا تفرض على الزوجة فرضا خدمة زوجها أو تربية أولادها أو العناية ببيتها، وأن عقد الزواج لا يلزم الزوجة بسوى حفظ عرضه وطاعته بالمعروف باعتباره رئيسا للأسرة. ويفترض في هذه الحالة أن يجلب لزوجته من يقوم بكل هذه الشئون المنزلية أو أن يعطيها أجرا لقاء قيامها بذلك ومع أن هذا لم يطبق عمليا، وأنه يخالف بعض النصوص مما جعله محل الاستهجان، إلا أنه يكشف عن وجه آخر للقضية جدير بالنظر، وأخذت به بالفعل بعض النظم بدرجات متفاوتة. فقررت صورا من المكافآت المادية أو التأمينات والتعويضات وغيرها للزوجات والأمهات وربات البيوت.

ونحن في الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل نرى أن "ربات البيوت" من المجموعات التي يحق لها الانضمام بحكم صفتها، شأنها في ذلك شأن المنظمات العمالية والطلابية والتعاونية الأخرى لأن ربات البيوت يعملن عملا صالحا، بل لعله أعظم الأعمال الصالحة إذا أردن به تربية الجيل تربية إسلامية رشيدة.

---

[23] **(23) أدب الدنيا والدين – للقاضي أبي الحسن على بن محمد البصري الماوردي ص 187 – 194 طبعة المعارف العمومية سنة 1928.**

الفصل الخامس
مقوّمات العمل
النيّة والصلاحيّة

يتميز العمل الـذي يثـاب عليه ويعتد به في الإسـلام عن غـيره بمقومـات معينة من أبرزها **"النيـة" أو ما يمكن أن نسـميه الإرادة.** ففي الإسـلام يفـترض أن يصـدر العمل عن نية طيبة.. وهو يقاس بدرجة "طيبة" وسمو وخلوص هذه النية. وأساس هذا المقوم القاعدة العامة التي وضعها الحديث المشهور **"إنما الأعمال بالنيات"** والتي استلهم فيها روح القـرآن عنـدما حقق للإنسـان حرية الاختيـار ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَـدَّقَ بِالْحُسْـنَى فَسَنُيَسِّـرُهُ لِلْيُسْـرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِـلَ وَاسْـتَغْنَى وَكَـذَّبَ بِالْحُسْـنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ **(الليل 5-11)** ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَـدْ خَـابَ مَنْ دَسَّـاهَا﴾ **(الشمس 7-9)** ﴿مَنْ كَـانَ يُرِيـدُ الْعَاجِلَـةَ عَجَّلْنَا لَـهُ فِيهَا مَا نَشَـاءُ لِمَنْ نُرِيـدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَـهُ جَهَنَّمَ يَصْـلاهَا مَذْمُومًا مَدْحُـورًا وَمَنْ أَرَادَ الآخِـرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُـوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِـكَ كَـانَ سَـعْيُهُمْ مَشْـكُورًا كُلا نُمِـدُّ هَــؤُلاء وَهَــؤُلاءِ مِنْ عَطَـاءِ رَبِّــكَ وَمَا كَـانَ عَطَـاءُ رَبِّــكَ مَحْظُـورًا﴾ **(الإسراء 18-20)**.

وهـذا المقـوم هو مما لا يمكن لغـير الإسـلام أن يتضـمنه، لأن للإسـلام ولاية خاصة على قلب المــؤمن به متأتية من الله – الـــذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصـــدور، ويستلهم من النبي وهو المثل الأعلى والأسوة والقدوة وهذا وذاك هما مما لا يوجد في الاقتصاد أو القانون أو النظم الوضعية عامة. وتميز العمل الإسلامي بهذا المقوم يجعل العمل جــزءا من إيمــان العامــل، وبلــورة لضــميره. **ولا يمكن لمثل هـذا العمل المنبثق عن الإرادة المكتسب للنية الخالصة أن يقتطع اقتطاعا من العامل نفسه ولا أن يكـون سـلعة تبـاع وتشـتري في سـوق العمل (كما يقال في الاقتصاد الرأسـمالي) ويخضع لما تخضع له السـلع من قـوانين العـــرض والطلب والمنافسة بحيث تبخس الأجـــور حـــتى يتحقق قـــانون الأجور الحديدي.** إن العمل الإسلامي باعتباره بلورة لإيمان العامل المسلم وضميره يجب أن يمنح حماية من عمليـات الـبيع والشـراء وضـغوط المنافسـة، كما أن العامل المسلم نفسه فرد في مجتمع التكافل الإسلامي الذي لا يهـدر فيه جهـد، ولا يضـيع فيه فرد ويقوم على أساس الجسد الواحد.. **"وان المؤمنين عـدول يسـعى بـذمتهم أدناهم"**، ومن شأن هذا وذاك حسم أي استغلال أو متاجرة لعمل يمثل إيمـان العامل وضميره.

واشتراط توفر النية في العمل جعل الإسلام يستبعد أسلوب السـخرة والإكـراه، فكل عمل أجـبر العامل على أدائه يفقد أصـالته و"عذريتـه" ولا يعتد بـه، ويجوز للعامل إن استطاع أن يتحلل منه دون مسئولية كما يجوز لكل مكره على قسم أو يمين أن يتحلل منه دون أثم.

ولقد قيل إن سـوءة المجتمع الرأسـمالي هي البطالـة، وأن معجـزة المجتمع الاشتراكي هي العمالـة، ولكن إذا أخـذت هـذه العمالة شـكل السـخرة والإكـراه، فـإن المجتمع الاشتراكي يكون قد وصل من النقيض إلى النقيض، ووقع في مثـل، أو أسـوأ، من بطالة المجتمع الرأسمالي، لأن العمل سخرة لا يشـرف أحـدا، ولا يغـني عنه حينئذ "شـعارات العمل حـق.. العمل واجب العمل شـرف الخ.." فإنما يكـون واجبا مشـرفا عندما يؤمن به العامل نفسه ويسعى إليه، أما أن يحمل عليه حملا ويسخر فيه قسـرا، فإنه يكون عندئذ عقوبة أسوأ من السجن لأن السـجن عقوبة مقيـدة للحريـة، ولكنها لا تمس شـخص المسـجون، ولكن العمل سـخرة عقوبة مقيـدة للحريـة.. ومنصـبة على شخص السجين.

ومن هذا العرض نجد أن مقوم النية في العمل الإسلامي الـذي يجعل العمل يصـدر إيمانا ويبلور ضميرا يكفل لهذا العمل ميزة الحرية ويحـرره من وصـمة السـخرة، وفي الوقت نفسه فإنه يحميه من أن يكـون عرضة للمتـاجرة في "سـوق العمـل" باعتبـاره سلعة أو أن يخضع للاستغلال.

وقد تنبه الفقهاء في إحدى لحظات التوفيق والإلهـام النـادرة أن النية تجعل العـادة عبادة "فمن كان يشـرب أو ينـام بفكـرة المحافظة على صـحته وأن يقـوم بواجبه نحو نفسه وأولاده وبلده، ويستطيع الوفاء بالتزاماته الإسلامية فإن هذه الأفعال كلها تصـبح عبادات ويثاب عليها".

بالإضافة إلى هذا كله، فإن اعتبـار "النيـة" مقوما من مقومـات العمل الإسـلامي أو أنه – على الأقل – عامل يجب أن يحسب حسـابه سـيحد شـيئا ما من أسـلوب إزجـاء العمال إلى أعمال لا يتجاوبون معها أو جعل "المجمـوع" هو معيـار التعـيين.. وسـيؤدي هـذا إلى الأخذ بنظم القابلية والحـرص على تـوفر عنصر التفضـيل الشخصي ما أمكن ذلك.

وإذا تحكمت الضـرورات فسـيق فـرد ما إلى عمل لا يحس نحـوه قابلية أو تجاوبـا، فاعتقد أن من المفروض أن يمنح مثل هذا الفرد "علاوة" تعينه على تقبل هذا العمل.

* * *

ومن المقومات البارزة في العمل الإسلامي أن يكون "صـالحا" وكلمة صـالحا والصـالحات ومشـتقاتها هي من الألفـاظ القرآنية الـتي أعطاها تواترها في القرآن "هويـة" قرآنية توضح قسـماتها وتجعل معـاجم اللغة توردها كالآتي:

صلح : زال عنه الفساد، وصلح الشـيء كـان نافعـاً أو مناسـباً وأصـلح في عمله أو أمره أتى بما هو صالح ونافع وأصلح الشيء أزال فساده. و**أصـلح** بينهما أو ذات بينهما أو بينهما أزال ما بينهما من عداوة وشقاق.

وصالحه مصالحه وصلاحا (بكسر الصـاد) سـالمه وصـافاه ويقـال صـالحه على الشيء سلك معه مسلك المسالمة في الاتفاق.

الصالح المستقيم المؤدي لواجباته.

الصلاح الاستقامة.. والصلاح السلامة من العيب.

و**الصلاحية**.. الاتساق في عمل ما "والصلاحية للعمل حسن التهيؤ له"[24].

وهذا التحديد لمعـنى الكلمة هو ما يتفق مع معـنى الكلمة في القـرآن. لأن القـرآن يسـتخدمها في مقابل الفسـاد.. ﴿وَإِذَا قِيـلَ لَهُمْ لا تُفْسِـدُوا فِي الأَرْضِ قَـالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْـــلِحُونَ أَلا إِنَّهُمْ هُمْ الْمُفْسِـــدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْـــعُرُونَ﴾، ﴿يُفْسِـــدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ﴾، ﴿وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَـبِيلَ الْمُفْسِـدِينَ﴾، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِـدَ مِنْ الْمُصْـلِحِ﴾، ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾. كما أن القـرآن يـذكر اللفظة في مقابل الظلم أيضا.. وعقب التوبة ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ﴾، ﴿وَمَا كَـانَ رَبُّكَ لِيُهْلِـكَ الْقُـرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾.

وهكـذا يتضح أن معــنى كلمة الصــالح والصــالحات لا يمكن أن يقتصر على الشعائر والفرائض العباديـة، كما يتصـور النـاس وأن الرجل الصـالح ليس هو بالدرجة الأولى، من يتزيي بـزي التقـوى والـورع، ولكنه النـافع والمناسب والعادل والكفء والبريء من شوائب الفساد أو الظلم.

وقد يسـتخدم القـرآن لفظة أخـرى أكـثر مباشـرة وأقـرب في الدلالة على الطـابع العملي وهي "حسـنة" وهو يسـتخدمها في مقابل لفظة أخـرى تماثلها في الدلالة على الطابع العملي وهي "سيئة". وتبني القرآن لهـذه اللفظـة، وليس لفظة "خطيئـة" ذات الدلالة الدينية يوضح الطابع العملي للإسلام. وإن كانت كلمة "حسنة" ومشـتقاتها أيضا قد التبست في الإفهام بما يجعلها تعطي معنى "التصدق" برا وعطفا.

وعلى كل حال، فإن "التصدق" ليس بعيدا عن مجـال العمـل.. وهو أقـرب إليه مما هو إلى مجال العبادة، لأنه ليس إلا صورة من صور الإنفـاق ذات الأثر البعيد في صـلاح المجتمع.

مع هذا فعلينا أن نلحظ أن القرآن، وإن كان قد اختار لفظتي الصالحات والحسـنات اللتين توحيـان بمعـان ذات طبيعة عملية من إحسـان أو كمـال أو اسـتقامة أو صـلاحية الخ.. فإن الكلمتين نفسـيهما لهما صـلة ما بمعـان الطيبة والخـير الـتي ترتبط بالـدين. فالعمل الإســلامي يتطلب نية طيبة خــيرة – كما يتطلب فعالية وإحســانا، وقد أجمل

---

24 **(24) المعجم الوسيط ج 1 ص520.**

القرآن بإعجازه الخارق القضية كلها في لفظتين عندما صور المثل المنشود للعامل ﴿الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾. فالإسلام لا يقنع بقوة دون أمانة أو أمانة دون قوة وإنما هو يريدهما معا للعمل الإسلامي، وإن تفاوتت النسب، أو تطلبت المواقف إبراز عنصر على عنصر. فقد كان حظ خالد بن الوليد – ممثل القوة في قيادة الجيوش أعظم من حظ أبي عبيدة ممثل الأمانة، وكان النبي ﷺ وأبو بكر وعمر من بعده. يعلمون أن خالد أقل من أبي عبيدة سابقة وإيمانا ولكنه أرجح منه قيادة ولهذا أثروه بالقيادة. مع أن النبي ﷺ كان يقول **"اللهم أني أبرأ إليك مما فعل خالد!"** وأن أبا بكر كتب إلى أبي عبيدة ".. ولّيت خالد لقتال العدو في الشام فلا تخالفه واسمع له واطع. وأنا أعلم أنك خير منه وأفضل دينا، ولكني ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك فأحببت أن أنسى به الروم وساوس الشيطان". ولم ير عمر بن الخطاب أن عمار بن ياسر أو أبا ذر بأصحاب ولاية على حين أنه أبقى معاوية بن أبي سفيان واليا للشام، وأين معاوية من عمار وأبي ذر ورعا وإيمانا وسابقه وصحبه، ولكنه كان أدرى منهما بفنون الحكم، وهذا هو ما يطلقون عليه في التعبيرات الحديثة "الرجل المناسب في المكان المناسب".

واستخدام هذين المقومين : النية والصلاحية لتقييم العمل وهما الحكم على مدى إسلاميته – بمعنى أن كل عمل يؤمن صاحبه أن ممارسته له توفر له مورد العيش الذي يفضله، أو لا يستطيع احتراف غيره في ظروفه وملابساته، وأن هذا العمل يفيد المجتمع، ويسد ثغرة من احتياجات المسلمين، فإنه يعد "إسلاميا" يثاب عليه، وان تقييم العمل قد لا يكون بالعمل نفسه قدر ما يكون بالنية فيه ومكانه في خدمة المجتمع. فقد تكون بعض الأعمال مرهقة، متعبة، تضطر صاحبها إلى صنوف من الأذى والقذر، ولكنها مع هذا تكون "إسلامية" يثاب صاحبها عليها، وبل قد يضاعف له الثواب لقاء ما يعانيه من إرهاق وأذى..

استخدام هذا المعيار المزدوج (النية والصلاحية) يختلف اختلافا تاما عن مذاهب الفقهاء في الحكم على الحرف – تلك المذاهب التي جعلتهم يحكمون على عديد من الحرف بأنها "حرف دنيئة". ولا يخالجنا أقل شك في أن هؤلاء الفقهاء كانوا يعبرون عن عقلية ونفسية مجتمعاتهم، وما حفلت به من رواسب عصور الانحلال.. وليس عن وجهة نظر الإسلام.

وقد نقل لنا **وجهة نظر الفقهاء** كاتب معاصر هو **الدكتور محمد رواس قلعجي** في بحث موجز بعنوان **"الاحتراف وآثاره في الفقه الإسلامي"**[25] فقال تحت عنوان **"حصر الحرف الدنيئة"** :

---

[25] **(25) وقد طبعه ونشره المركز العالمي لأبحاث الاقتصاد الإسلامي – جامعة الملك عبد العزيز آل سعود جدة – الحجاز وأورد الكاتب في هوامش بحثه المراجع التي استمد منها هذه الأحكام من كتب الفقه المعتمدة مما لم نجد حاجة لإثباتها. (من ص12 إلى ص17).**

"لقد حرص الفقهاء على تحديد الحرف الدنيئة، ليبقى ما وراءها من الحرف شريفا، فأول ما بـدءوا به بيـان تصـورهم للحرفة الدنيئة فقـالوا: الحرفة الدنيئة هي كل حرفة دلت ملابساتها على انحطاط المروءة وسقوط النفس، ثم راحوا يعتمدون على العرف في تعداد الحرف الدنيئة التي حكمت عليها أعراف عصرهم أنها حرف دنيئة.

- فذكر المالكية الحجام والزبال والحائك والفران والحمامي والشـاعر الـذي يمـدح الناس في الأسواق والولائم ممن يتعاطون حرفا دنيئة.

- وذكر الحنابلة الحائك والحجام والفصام – وهو الذي يجرح الجلد ليسـيل منه الـدم – والحارس والكساح – وهو الذي ينظف الأفنية والكنف – والـدباغ والحمـامي والزبـال والصـباغ والصـائغ والحـداد ومـؤجر الفحل للعسب – أي اللقـاح – والماشـطة – الـتي تتولى تزيين النساء – والنائحة والبلان – وهو قيم الحمام – والمزين والجـرائحي – وهو الطبيب الجراح – والبيطار ممن يتعاطون حرفا دنيئة.

- وذكر الشـافعية الكنـاس والحجـام والحـارس والـراعي وقيِّم الحمـام (البلان) والفصاد والحاقن – الذي يداوي الناس بالحقنة الشـرجية – والقمـام والقصـار والزبـال والكحال والدباغ والإسكاف والجزار والقصاب والسلاخ والجمال – الذي يسوق الجمال بـالمراكب – والـدلال – الـذي ينـادي على السـلع – والحمـال والحائك والملاح والجلاد والهراس – الذي ينادي على الهريسة ليبيعها – والفوال والحداد والصـواغ – هو الصـائغ – والبيطار من الذين يتعاطون حرفا دنيئة.

- وذكر الحنفية الحائك والحجام والكناس والدباغ والحلاق والبيطار والحداد والصفار – الـذي ينظف الأواني النحاسـية ويطليها بالقصـدير – والحـارس والسـائس والـراعي وقيم الحمام والبواب والسواق – الذي يسوق الدابة بالراكب – والفراش – الذي يتولى تنظيف مفروشات المـنزل ونحـوه – والوقـاد والمرضع الـتي احـترفت الإرضـاع بـأجر، ممن يتعاطون حرفا دنيئة.

* وبذلك نرى أنهم اتفقوا على أن الحجام والزبال – ويقال له الكنـاس والكسـاح – والحائك والبلان ممن يتعاطون حرفا دنيئة.

وأن المدقق في هذه الحرف يرى أنها اعتبرت حرفا دنيئة للعلل الـتي سـنذكرها إن شاء الله:

فالحجامة : - وهي مص الدم والقيح بـالفم – كـانت حـرف دنيئة لمخالطة متعاطيها النجاسة.

والزبال : - وهو الذي يجمع أوساخ الناس وقمامات بيوتهم – كـانت حرفته دنيئة لما فيها من مخالطة النجاسات، ومخالطة القـاذورات، فضلا عن أنها من الأعمـال البهيمية التي يؤديها متعاطيها من غير فكر.

والحياكة : - كانت قـديما من الحـرف الدنيئة لما يـداخلها من الغش، فالحائك – في القديم – كان يرش الدقيق المذاب بالماء على القماش لستر به عيوب الحياكة، وليبدو النسيج جيدا، والثوب صفيقا.

والبلان : - وهو قيم الحمــام – فـإن حرفته اعتــبرت دنيئة لما يقع فيه متعاطيها من إطلاع على عورات الناس في الحمام.

* واتفقت المـــذاهب الثلاثة : الحنفي والشـــافعي والحنبلي على اعتبـــار حرفة الحراسة والحدادة والبيطرة والدباغة حرفا دنيئة.

وإن المــدقق في هــذه الحــرف يــرى أن الحراسة – والمــراد بها الحراسة الخاصة أعني : حراسة شخص، لا الحراسة العامة التي هي جزء من مهـام الدولة في الحفـاظ على الأمن – اعتــبرت حرفة دنيئة لما فيها من الخدمة المباشـــرة للأبـــدان من غـــير ضرورة، والتبعية الكاملة لشخص، وتقلص الشخصية، بل ذوبانهـا، وزوال عنصر الفكـر، حتى لتصبح من الأعمال البهيمية.

وان الحـــدادة في ذلك العصر فيها من الاســتقذار وتشــويه الصــورة – أي الوجه – بالسواد ونتن الرائحة ما تترفع عنه النفوس العالية.

وان البيطرة – في ذلك العصر – فيها الرضا بمخالطة الحيوانات وأبوالها وأرواثها.

وان الدباغة في ذلك العصر فيها مخالطة أهب الحيوانات الميتة النجسة.

* واتفق الحنابلة والشافعية على اعتبار الصياغة والفصادة والصباغة حرفا دنيئة.

وقد اعتــبر هـؤلاء الصـياغة من الحــرف الدنيئة لأن الصـياغ يصـنعون حلي الـذهب للرجال مما يساعدهم على ارتكاب الحرام.

أما الفصــادة – وهي التـداوي بشق الجلد وإســالة الـدم من البــدن – فلما فيها من أضعاف البدن، ومباشرة النجاسة – وهي الدم.

وأما الصـــباغة فلما يســـتعمله الصـــباغون – في ذلك العصر – في صـــناعتهم من الأبوال.

* واتفق الحنفية والشافعية على اعتبار الرعي حرفة دنيئة.

ولعل الســـبب في ذلك أن متعاطيها يعمل عملا بهيميا خاليا من الفكر – هـــذا إذا خلت من التفكير الهادئ في مصالح النــاس، وفي آلاء الله – ولأنه رضى أن يكــون في خدمة البهيمة العجمــاء، وهي أدنى حــالا من الإنســان الـذي اعتــبروا خدمة بدنه خدمة محضة من غير ضرورة حرفة دنيئة.

* ونص الحنابلة على اعتبار النائحة والماشطة والجرائحي – الطبيب الجراح – وبيع عسب الفحل حرفا دنيئة.

ووجهة نظر الحنابلة في ذلك أن النائحة – وهي الــتي تبكي على المــوتى وتنــدبهم بأجر – تتعـاطى عملا نهى عنه الشـارع الحكيم لقـول رسـول الله ﷺ (الميت يعـذب في قبره بما نيح عليــه) وعن أم عطية الأنصـارية – وهي من المباعيـات قـالت : أخذ علينا رسول الله ﷺ في البيعة ألا ننوح.

وأن الماشطة – وهي المزينة – كانت تتعـاطى نتف النمص من الوجه وهو أمر نهى عنه الشارع لقول رسول الله (لعن الله النامصة والمتنمصة).

وأن بيع عسب الفحل – أي تـأجير الفحل للقـاح نهى عنه الشـارع الحكيم فقد روى جابر بن عبد الله قـال : نهى رسـول الله عليه وسـلم عن ضـراب الجمل – أي ركـوب الأنثى للوقاع.

وأن الجرائحي كالفصاد يخالط الدم وهو نجس.

* ونص الحنفية على اعتبـار السـائس والسـواق، والفـراش، والبـواب، والوقـاد والصفار، والمرضع ممن يتعاطون حرفا دنيئة.

ووجهة نظرهم في ذلك :

أن السائس كالبيطـار رضى أن يكـون في خدمة جسد الحيـوان، وهو يخالط أبـوال الحيوان وأرواثه، وهي نجسة.

وأن السـواق – وهو الـذي يـركض وراء الدابة يسـوقها بالرجل الـراكب عليها – والفـراش والبـواب والمرضع وضـعوا أنفسـهم في خدمة أحيـاء آخـرين – فهم يتعبـون ليستريح غيرهم، ويشقون، ليسعد غيرهم من غير ضرورة ملحة لذلك.

وأن الوقـاد – وهو الـذي يمد النـار بالقمامة ليـدوم اشـتعالها – يخالط الأقـذار والنجاسات.

وأن الصـفار – وهو الـذي يجلو الأواني النحاسـية ويطليها بالقصـدير يقـوم بحركـات صبيانية مضحكة تجعل الصبيان يضحكون منه حين قيامه بعملـه، وذلك أنه يحفر حفـرة قليلة العمق قريبة من الجدار، ويضع فيها الوعـاء النحاسي كالقـدر الكبـيرة مثلا ويقف هو في وسط القدر ويمسك الجدار بيديه ثم يبدأ بقذف جسـمه بالاسـتدارة يمينا مـرة، ويسارا مرة أخرى بخفة تثير الضحك.

* ونص الشافعية على اعتبار الإسكاف والحمال والجلاد والهراس والملاح والـدلال والقصار، والحاقن، والكحال – طبيب العيون – ممن يتعاطون حرفا دنيئة.

ووجهة نظرهم في ذلك :

أن الحمـال والملاح – وهو الـذي يجـدف بالمجـاديف ليجـري السـفينة براكبيها – يتعاطيان حرف خدمة محضة. وكذلك الجلاد، إضـافة إلى أن حرفة الجلاد تـنزع ما بقى في قلبه من الرحمة، بل تجعله إنسانا منجرفا يسعد بتعذيب الآخرين.

وأن الإسـكاف رضى بخدمة أحذية النـاس، مع أن خدمة أشخاصـهم خدمة محضة تعتبر من الحرف الدنيئة، فما بالك إذا كانت الخدمة تباشر أحذيتهم.

وأن الهــراس – وهو بــائع الهريسة – والــدلال – وهو الــذي ينــادي على الســلعة – اعتبرت حرفهم دنيئة لما فيها من رفع الصـوت، فبـائع الهريسة ينـادي عليها – في ذلك العصر – بأعلى صوته، وبنغمة متميزة، وكذلك الدلال، وهذا فيه خفة بالنسبة إليهم.

وأن الحاقن – وهو الذي يطبب الناس بالحقنة الشـرجية – لمعاجلة احتبـاس الغائط – فلأنه كثير الإطلاع على عورات الناس.

وأما القصار والكحـال فلم أدرك سـببا لاعتبـار حرفتهما حرفة دنيئة ولعله عـرف قد سـاد في فـترة زمنية معينــة. أو لأن كل قصــار صــباغ بالعــادة، وقد تقــدم الكلام في الصباغ.

* ونص الحنابلة على اعتبــار الفــران والشــاعر الــذي يمــدح النــاس في الــولائم والأسواق ممن يتعاطون حرفا دنيئة.

أما الفران : فلاشتهار الفرانين بأكل المال الحرام، فهم يسرقون من عجين النــاس ليبيعوه خبزا، ويصغرون الأرغفة ليزاد عددها لأنهم يأخذون الأجر على الرغيف.

وأما الشــاعر الــذي يمــدح النــاس في الــولائم والأعــراس تقربا إليهم أو طمعا في مالهم، فإنه دنئ النفس.

هــذا ما أثر عن فقهائنا – رحمهم الله تعــالى – في الحــرف الدنيئة نقلته عنهم بكل أمانة، مبينا علة حكمهم على كل حرفة ذكروا أنها دنيئة." انتهى

بهذا كاد الفقهاء أن يدخلوا معظم الحـرف اليدوية في إطـار "الحـرف الدنيئــة" وفــاتهم أن النــبي فضل العمل اليــدوي. وأنه قبل اليد الــتي مجلتها المسحاة قـائلا "هـذه يد يحبها الله ورسـوله" وأنه هو نفسه كـان يخصف نعله ويقم بيته ويجمع الحطب، وأن مهنتــه، ومهنة موسى كــانت الرعي. وأنه آسف لما علم بوفاة عجوز كانت تقم المسجد لأن هذا حــال دون أن يصلي عليها. وأن مهنة داود كـانت الحـدادة ومهنة إدريس كـانت الخياطة ومهنة نـــوح كـــانت النجـــارة وأن الصـــحابة والتـــابعين، وأئمة المــذاهب، من علي بن أبي طــالب حــتى أحمد بن حنبل عملــوا أعمــالا يدويـــــة، بل اشـــــتغلوا في حمل الأثقـــــال! وأن أعلى أســـــماء في الأرستقراطية القرشية الإسلامية: زينب بنت جحش وأسـماء بنت عميس كانتا تقومان بالدبغ وبكثير مما ادخلوه في الحرف الدنيئة!

ولكن هذا القطع من الفقهاء لا يعد غريبا بعد أن ذهب بعضهم إلى أن "غـزل الرجل إن كان على مثال غزل المرآة يكره ! لأنه تشبه بهن !".

فإذا كانت هذه المزاعم والآراء هي الآن تدين أصحابها بـأنهم كـانوا يحكمـون بـروح عصرهم، وبجزئيات لا قيمة لها إلا في حكم الصـنعة الفقهية على حسـاب جـوهر وروح الإسلام، فإن من الغريب أن نجد مؤلف رسالة **"الاحتراف.."** يجري على سنن هؤلاء

الفقهاء فيصنف الحرف على أساس حرف للنساء وأخرى للرجال ذاهبا إلى أن "الأخذ بهذا التصنيف يؤدي عمليا إلى فصل النساء عن الرجال في العمل، فإذا كان عمل النساء غير عمل الرجال، فلا مبرر إذن لاختلاط الرجال بالنساء في العمل على الأقل، وبذلك يتحقق أروع انسجام بين النظم الإسلامية حيث يساند بعضها بعضا ويساعد بعضها بعضا على تحقيق أهدافه". **وفات الباحث أن الإسلام لم يستهدف فصل النساء عن الرجال، بل لقد نهى النبي ﷺ عن منعهن من المساجد، وهو نهي لا يزال شجي في حلق الفقهاء !** وقد كان يخرج بهن في الأعياد، وكان من النساء من يشتركن في الحرب اشتراكا فعليا وأن النبي استجاب لمن أرادت أن تشترك في الغزو البحري مع الرجال فضلا عن التمريض والعلاج. وأن مجتمع الآيات القرآنية لا يعرف الفصل بين الجنسين. فهو يشير إليهما بدون تمييز، وهو يفترض وجود النساء مع الرجال، وإلا لما أمر بغض النظر، وآداب الزينة. **فالمؤلف، وإن نقد الفقهاء القدامى، فإنه سار على نهجهم في الاهتمام بالشكليات والمظاهر على حساب الحقائق والجوهريات..**

إن هذا الحشف البالي كله الذي دفع به الفقهاء إلى مجال العمل أساء إلى قضية العمل، ولوث كثيرا من الحرف بوصمة "الدناءة" وكان في اصل ازدراء الناس للعمل اليدوي الذي كرّمه الله وكرّمه الرسول، ونحن اليوم نرفضه جملة وتفصيلا وننبذه وراء ظهورنا ونضع نصب أعيننا تلك المعاني والقيم والتوجيهات التي نجدها في القرآن والصحيح الثابت من سنة الرسول – قولا وعملا.

الفصل السادس
حتى لا نفقد الابتسامة ...

اقتصر حديثنا حتى الآن عن مقومات ومضمون وأخلاقيـات العمل في الإسـلام، وما يفـترض في هـذه كلهـا، وما ينبغي لهـا، ولكننا نريد أن نشـير إلى ناحية أخـرى قلما يلحظها الكتاب والخبراء، وإن لحظها الأدباء والفنانون بحاستهم الفنية، تلك هي أنه في كثير من الحالات نجد العامل الأوروبي يعمل.. وعلى وجهه ابتسامة. إن الأمر لا يقتصر على الإتقان والإخلاص والمهـارة، ولكن أيضا السـعادة الـتي يحسـها العامل عـبر عمله وبفضله، سواء كانت هذه السعادة صـادرة عن إحسـاس بخدمة النـاس وتقـديم شـيء لهم يـريحهم ويفيـدهم أو لأنه يرضي في النفس حاسة أو جانبا معينـا. وفي الحـالتين، فإن هذه السعادة تتجسم في ابتسامة يهديها العامل مع عمله.. وفوق عمله..

ولكي تكون الفكرة مفهومة. سأنقل هنا ملاحظات لكاتبين عن هـذا الموضـوع، أولها الـدكتور **حسين مـؤنس** الـذي نشر في مجلة أكتـوبر مقـالا بعنـوان **"حكاية مـدام عفـاف"**[26] تحـدث فيه عن تجربته مع السـكرتيرات في أوروبا وأمريكا ومصـر. ففي سنة **1950** ذهب إلى جامعة ييل (الولايات المتحدة) أستاذا زائرا..

ولندعه يتحدث..

"كنا حـوالي عشـرة رجـال ونسـاء أعضـاء هيئة التـدريس في قسم التـاريخ. وكـان للقسم سكرتيرة واحدة اسـمها مسز نورما كـارتن، كـانت في منتصف الأربعينـات من عمرها، وكانت وسيمة ورشيقة، ولها ولد وبنت في أوائل العشرينات..

ومسز كارتن كانت تقوم بأعمال السكرتارية لنا كلنا على نحو يـدعو إلى الإعجـاب، كنت لا تراها إلا في آنق صـورة دون تكلف أو قصـد. كنت تراها في ثيـاب رشـيقة غاية في الحشمة. على وجهها ابتسـامة لا تغيب، وفي نفسـها طيبة جميلـة، وأنت تـأتي في الصــباح وتطلب منها كل ما تريد : تملي عليها نصــوص خطــابين أو ثلاثة وترجوها أن تحجز لزوجتك موعدا مع طبيب التوليد. وترسل زهـورا إلى زميل لمناسـبة عيد ميلاده، وتحجز لك تذكرة في قطار السـابعة صـباحا إلى نيويـورك بعد غد مع الحجز في فنـدق كذا، وهي تسألك إن كنت ستحضر العشاء عند العميد في يوم كذا، وتبلغك أن الأسـتاذ فلان مــريض في المستشــفى ويستحسن أن تمر عليــه. وتــدخل إلى درسك وتلقي محاضــرتك وتخــرج لتجد أن كل شــيء تمــام على الطريقة الأمريكية لا المصــرية: خطاباتك جاهزة على التوقيع، وموعد الطبيب حجـز، والزهـور أرسـلت، وتـذكرة سـكة الحديد حجزت وكذلك حجرتك في فندق ولنجتون وهذا هو رقم الغرفـة، وهي تنصـحك

---

[26] **(26) العدد 369 في 20 نوفمبر 1983.**

بــأن تحضر العشــاء عند العميد لأن الســيدة حــرم العميد لا تحب أن يعتــذر أحد عن الاستقبال في بيتها..

كنت أنا أقل مئونة من غيري لأن الآخرين كانوا يطلبون عشرات الأشياء وهي تقوم بكل المطــالب في كفاية تملأ النفس بهجة وهي لا تنسى أن زوجتك اقــترب ميعــاد ولادتهــا، فهي تمر عليها في الــبيت لتــذهب معها إلى المتــاجر لشــراء حاجـات الطفل القادم.

وإلى حد بعيد كانت نورما كارتن الذراع اليمنى لعشرة رجال ونسائهم، وكان رئيس القسم مؤرخا عظيما ولكن مشـــاكله مع امرأته لا تنتهي، ونورما دائما هي الوســـيط وقاضي الصلح".

ويستطرد الدكتور حسين مؤنس فيشـير إلى سـكرتيرته في بـاريس مـدام سـوزان ارفيو..

"هــذه يا ســيدي كــانت في الثلاثينــات، ولكنها كــانت آية في الكفاية كــانت تجيد الإنجليزية والفرنســية وتكتب الماكينة بســرعة ودقة وتأخذ أي رســالة بالاســتينو أو الاختزال، وكانت تعرف كل شيء وتحل لك كل مشكل، وتعطيها فقط المذكرة فتكتبها لك أحسن كتابة وأبلغهــــا. وتحجز الطــــائرة والفنــــدق وتحافظ لك على حقوقك في المنظمة، ومن الثامنة صباحا تجدها في مكتبها وفي منتصف النهار تـدعوك للغـداء في الكافيتريا مع زوجها وابنتهــا. زوجها الطــبيب يــدعوك إلى مســرحية بديعة يمثلونها في الشــاتليه. ومــدام ارفيو تنصــحك في كل ما يتعلق بما تريد شــراءه لزوجتك وأولادك. وهي تذكرك بموعدك مع طبيب العيون، ولا أذكر أنها نسـيت مـرة واحـدة أن توصـلني بسيارتها إلى المحطة الجوية (الأيرو جار) قرب الانفاليد، فإذا لم تسـتطع فهنــاك أبنتها كارولين أو زوجها الدكتور روجيه أرفيو..

وإلى جــانب ذلك كله فهي باريســية من شــعرها إلى كعب حــذائها : أنيقة رشــيقة تلبس من عند ديــور وشــانيل وســكياباريلي وهيأتها تقــول أنها لا تنسى أبــدا موعــدها الأســبوعي مع قاعة التجميل أو الصــالون دبوتيــه. كل ذلك مع كمــال وحشــمة وأدب وظرف وحنان أنثوي عظيم".

وأخيرا عاد الدكتور حسين إلى الوطن واستقر به المقام كرئيس تحرير.. فجاءوا له – رغم أنفه – بســكرتيرة "لهلوبــة" كما ادعــوا، هي مــدام عفــاف. ويــأتي الــدكتور إلى مكتبه حوالي الثامنة صباحا يكتب ويراجع..

"والســاعة العاشــرة تصل مــدام عفــاف وتبــدأ يومها بخناقة مع الفــراش الــذي لم ينظف مكتبها والصوت يترامى إلي من بعيد وأرفع السماعة وأقول :

- وصلت يا مدام عفاف؟
- وصلت يا دكتور وسآتيك بعد دقيقة، بعد أن أجد لي حلا مع الفراش..
- إذن فاوصليني بالأستاذ فلان في جريدة الجمهورية.

- وما رقمه يا دكتور؟

- يا مدام عندك دفتر التليفون وهناك عمال السويتش تصرفي. والله يا مدام عفاف فإن أمامنا عملا كثيرا، وبعد أن تفرغي من تلك المكالمة تفضلي إلى مكتبي لأعطيك شيئا تكتبينه..

وبعد ثلث ساعة أطلبها فتقول أنها لا تصل إلى رقم جريدة الجمهورية فأستدعيها وأدعوها للجلوس وأطلب مكتب رئيس مجلس الإدارة وأحصل منه على أرقام كل الصحف وأناولها إياها وأقول :

- هكذا كنت أريد منك أن تتصرفي، فإن الإنسان ينبغي أن يعمل عقله. وكان ينبغي أن يخطر على بالك أن سكرتيرة رئيس مجلس الإدارة لديها أرقام كل الصحف، والآن اعملي لك دفتر عناوين مرتبا على الحروف الأبجدية ومن الآن فصاعدا تكتبين الأرقام التي تهمنا. والآن خذي هذا المقال واكتبيه على الماكينة.

وأخذت المقال ومضت، وبعد ساعة أذهب لأرى ماذا عملت فأجدها لم تكتب شيئا.

- لماذا يا مدام..
- لا أستطيع أن اقرأ خطك.
- ولماذا لم تقولي ذلك من ساعة. انني أعرف أن خطي عسير بعض الشيء، ولكنك إذا عرفت بعض قواعده سهل عليك بعد ذلك. أعطني المقال لأراجعه وخذي هذا الكتاب وانسخي هذه الصفحة.
وتأخذ الكتاب وأنظر فإذا بأختنا تكتب بإصبع واحد، وتأخذ في السطر دقيقتين فأقول:

- يا مدام عفاف، ألا تكتبين سبعين كلمة في الدقيقة ؟.. هذا نص مطبوع.

- اكتب ولكني متعبة هذه الأيام..

وأتبين أن مدام عفاف حامل. وما دامت حاملا فلا مجال لمطالبتها بأي عمل، فآخذ أوراقي وأقول لها :
- ما دام هذا هكذا فلماذا أخذت عمل السكرتارية ؟
- كل السكرتيرات هنا عملهن الوحيد هو التليفون..

وأفهمها الدكتور أن لب عمله هو كتابة المقالات على الآلة الكاتبة ومراجعة ردود القراء، وحاولت مدام عفاف.. وبالفعل تحسنت "ولكنها لم تستطع أبدا أن تتحكم في وقتها، كانت تعيش بعقلها وكيانها في بيتها أولادها وبيتها قبل كل شيء. وزوجها لم يكن رجلا مريحا، ولكنه محور حياتها. أحيانا كانت تأتي بإبنها الصغير إلى المكتب والولد طول الوقت يجري في الممرات. وأحيانا أخرى كنت أراها تشتغل التريكو ولم أعد أهتم للأمر، ولو أنها أتت بالخضار لتعده في المكتب كما يقال إن غيرها يفعل لما أدهشني ذلك".

وقدم الـدكتور يوسف إدريس صـورة قريبة لما قدمه الـدكتور حسـين مـؤنس، وإن عـادت إلى الأيـام المعاصـرة، وليس إلى ثلاثين عاما خلت، عنـدما تحـدث عن عاملة البوفيه في القطار السريع من باريس إلى مارسيليا الذي يسير بسرعة **350** كيلو في الساعة.. فقال :

"البوفيه لا يقل عن الثلاثين شخصا. تلبي طلباتهم جميعا فتاة لم تكف عن الابتسـام طـوال الرحلـة، ولم تكن ابتسـامة واحـدة ممطوطة وملصـقة فـوق ملامحها كالقنـاع الزائـف، كـانت ابتسـامة متغـيرة حقيقيـة، فهي تختلف إذا وجهتها إلى شـاب في مثل سنها عنها إذا أجابت بها طفلة أو عجوزا أو ضيفا مثلي متعثر الفرنسـية يطلب منها أن تتحـدث في بطء ليسـتطيع متابعتهـا. ظللت واقفا فـترة طويلة جـدا أراقبها كيف تلـبي طلبات الزبائن في لمح البصر بحيث يفرغ البوفيه ويمتلئ والطلبات لا تتوقف، وكـذلك سـرعتها في الاسـتجابة. ثلاث سـاعات خـدمت فيها ما يقـرب من الثلاثمائة مسـافر وابتسمت ثلاثمائة مرة، وضحكت عشرات المرات وكان واضحا تماما أنها سـعيدة جـدا بما تعمـــل. وهنـــاك، حين أوشك البوفيه أن يفـــرغ، ولم يبق على مرســـيليا إلا بضع عشـــرات من الكيلو مـــترات وقفت في جـــانب من البوفيـــه، وتنـــاولت حقيبة يـــدها، وأخرجت علبة سجائر، تناولت واحـدة منها وأشـعلتها، لأول مـرة منذ أن بـدأنا الرحلـة. راقبتها وهي تـدخن أيضـا. كـان واضـحا أنها مدخنة عويصـة، وأنا مـدخن أيضا ولكن لا تستطيع قوة في الوجود أن تبقيـني لمـدة ثلاث سـاعات بلا تـدخين. أكـانت متعتها في العمل إذن أكبر بكثير من متعة المدخن بسيجارته."[(27)]

ودهش الدكتور يوسف إدريس عنـدما علم أن مـدة خـدمتها في هـذا القطـار "رغم الهمة الرهيبة والنشـــاط الباسم والســـعادة الحقيقية الـــتي ترتسم على محياها وهي تعمل" هي شهر واحد بعدها يكون عليها أن تجد عملا آخر.. وعنـدما سـألها لمـاذا كنت تعملين بكل تلك الهمة والسـعادة.. وأنت سـتغادرين شـركة القطـارات السـريعة بعد شهر ابتسـمت وقـالت "أنا أحبـه" كـأن العمـل، مجـرد العمل "حبيبهـا" وهي صـورة لا تختلف في الجوهر عن سكرتيرات الدكتور حسين مؤنس، وتـوفر الخدمة والابتسـامة، حتى وإن كانت مهتزة شيئا ما بفعل ثلاثين عاما من التطور الكاسح.

ولو اتسع الحال لروينا حـالات لا حصر لها عن خطابـات يكتبها مرسـلوها فيخطئـون في الاســم، وفي رقم المــنزل، واسم الشــارع، ثم تصل إلى أصـحابها بفضل تحــري مـوظفي البريد ورغبتهم الصـادقة في توصـيل هـذه الخطابـات. ومثل طلبـات النجـدة بالتليفون التي يبذل العاملات فيها جهـودا جبـارة للاسـتجابة، ويواصـلن متابعة الحالـة.. وما إلى هذا كله مما يعكس التفاني في العمل والخدمة.. مع الابتسامة والتهـذيب وقد يصـور ذلك ما كتبه الأسـتاذ أنيس منصـور في عمـوده اليـومي "مواقـف" في جريـدة الأهرام يوم **6/3/1984**.

---

27 **(27) الأهرام 24/4/1984.**

"على الـرغم من أنــني لا أعــرف اسم الكتــاب الــذي ذهبت أبحث عنه في مكتبة "جلــوب" بواشـــنطن فقد حــاولت البائعة أن تســاعدني على ذلك فالكتــاب طــبي والموضوع هام، ولا أعـرف إلا اسم المؤلـف، حـتى اسم المؤلف لم يكن دقيقا وكل ما تذكرته أن هذا المؤلف كان مريضا في إحدى المستشـفيات. وأن زائـرة أتت له بـورد، ظنا منها أنه أحد ممثلي المسلسلات التليفزيونية. وكان المريض الطـبيب سـعيدا بهـذا الخطــأ، ولم يشأ أن يصــححه للزائــرة المعجبة الــتي جعلت تــتردد عليه في نهاية كل أسبوع وأحبها وأحبته، وتزوجا. وأن هذه القصة ظهرت على الشاشة فرفع أمره لقضاء وكسب القضية ومعها نصف مليون دولار!

واسـتمعت البائعة إلى هـذه القصـة، ولم تكن تعرفهـا، وفي التليفـون سـألت زميلة وزميلا لها، ولكن أحدا لم يعـرف، وأخـيرا راحت تقلب في دفـتر التليفونـات، وتحـدثت إلى شبكات التليفزيون، وبعد عشر دقائق عرفت الاسم.

وشكرتها على الجهد الذي بذلته، ورغم أن طابورا طويلا من الزبائن يقف ورائي فلا هي تضـايقت، ولا أحد من الـواقفين، وإنما هي تعمل وهم يقـدرون ذلك لأنهم يعملـون مثلها بنفس الجدية والإخلاص.

ثم قــدمت لي ورقة عليها عنــوان المؤلف ورقم تليفونه ودار النشر وموعد صــدور الكتاب.

ونظرت إلى الناس ورائي استأذن في دقيقة أخرى.

وسألتها : إذا كان من الممكن أن التقي بهذا المؤلف غدا أو بعد غد. فهزت رأســها، وقــالت ســوف أبعث إليك بعنوانه في الفنــدق الــذي تــنزل بــه. منتهى الإخلاص في العمل".

فإذا قارنا هذا بما عندنا، فقد يصور ما عندنا هذه الشـكوى الـتي أرسـلها قـارئ إلى جريدة الأهرام ونشرتها الجريدة تحت عنوان "ربنا يهدك" !![28]

"لظـروف قهرية اتصـلت من السـعودية بـرقم اسـتعلامات تليفونـات القـاهرة في الرقم **767000** لأطلب رقم مستشفى الرمد بأمبابة للاستفسار عن صحة إنســان أنا بعيد عنــه، وعنــدما اتصــلت ردت الموظفــة، طلبت منها الـرقم، فقـالت حاضر أصـبر شوية.. ربنا يهدك! فسكت وبعد فترة أعطتني رقم **805892**، فشكرتها جدا واتصلت بالرقم المـذكور فلم يكن رقم مستشـفى الرمـد، فاتصـلت بالاسـتعلامات مـرة أخـرى وردت نفس الموظفة المتخصصة على ما أظن في التهــــريج والكلام الفاضي الــــذي نسمعه ونحن على الخط صابرين في انتظـار رحمتهـا، وبعد فـترة قـالت خد يا سـيدي الرقم **810196** فاتصلت به وللأسف لم يكن هو أيضا الرقم الصـحيح، وكـان ذلك في يوم الأحـد. فاتصـلت بها في اليـوم التـالي لعل أعصـابها تكـون أهـدأ وردت الموظفـة، وقلت لها أرجوك أنا بأكلمك من السعودية. فأعطتني رقم **810270** واتصــلت به فلم

---

[28] **(28) الأهرام رسائل القراء 9/5/1984.**

يكن هو أيضا الرقم الصحيح! فاتصلت يوم الثلاثاء وكلما سـمعت الصـوت سـمعت منه نفس الكلمـات طب حاضـر، ثم انتظر على الخط **5** أو 1**0** دقـائق ويقفل الخط مـرة واثنين وثلاثا، وكأني أطلب منها لبن العصفور! فلماذا يسـتهتر البعض بـالآخرين هكـذا.. لقد لقيت هـذه المعانـاة وأنا أطلب طلبا بسـيطا هو مستشـفى للسـؤال عن مـريض.. فهل هذا يليق !!؟

وعلق المحرر : لا .. لا يليق ولا يجوز أن نعامل بعضنا البعض بهذا الاستهتار المعيب ولا أعرف سر هذه الكلمات السوقية التي أصبحنا نسـمعها من بعض مـوظفي مصـالح الخدمات ومحلات القطاع العـام، ولا سر هـذا الاجـتراء السـخيف على من يطلب حقه في الحصــول على خدمة عامة فيقابل بعبــارات من نــوع "ربنا يهــدك"، إنها ظــاهرة مؤسفة تحتاج إلى الردع والعقاب.

ونعتقد أن هـذه النبـذة تمثل تمـام التمثيل الأغلبية العظمى لصـورة الخـدمات في المجتمع المصـري، فهنـاك البقية الباقية من الرغبة في العمل والخدمـة، وهـذه الرغبة تصـطدم بعـدم الدقة والمهـارة وبالضـيق النفسي وعـدم الإجمـاع والاتفـاق النهـائي والمسلم به لما يجب أن يكون عليه التهـذيب في المخاطبة والتعبـير، وإن كـان هـذا لا ينفي وجود حالات مختلفة، ولكن تظل الأغلبية تمثلها الحالة التي استشهدنا بها..

وقد أعاد الدكتور حسـين مـؤنس والـدكتور يوسف إدريس سـوء الخدمة عنـدنا إلى المجتمع الذي حطّم شخصية المرأة، وفرض عليها وصـاية ثقيلـة، وأبهظ عـاتق العامل بالمشـاكل والهمـوم والتعقيد بحيث لم يعد هنـاك مجـال لظهـور الابتسـامة وسط التل المتعالي من الهموم والمشكلات.

ولا ريب أن للمجتمع آثـاره على نفسـية العـاملين، ومن يقـرأ تـاريخ العمل يجد أن الدول الأوروبية عندما تعرّضت لفترة الانتقال من الإنتاج اليدوي إلى الإنتــاج الآلي، وما صاحب الثورة الصناعية من زعزعة للأوضاع القديمة المستقرة.. يعـرف كيف أن عمل العمال تلك الفترة اتسم بصورة بالغة من الفجاجة والاستهتار والقصـور وما اصـطحب بحيـاة العمـال من همـوم ومشـكلات، لا حصر لها نتيجة للاسـتغلال الرأسـمالي وشـبح البطالة الرهيب فضلا عن الجهالة الفاشية، وأن هذا كله دفع عمال بريطانيا إلى إدمـان مشروب "الجن" الرخيص الذي كـانت كمية منه ببضـعة ملاليم تجعل العامل يغيب عن الوجود، وتعطيه فترة يهـرب فيها من مجابهة الواقع المخيـف، وبـالطبع ففي مثل هـذا المجتمع لم يكن ليتصـور وجـود سـكرتيرات الـدكتور حسـين مـؤنس أو عاملة بوفيه كعاملة بوفيه الدكتور يوسف إدريس. وتطلب الأمر مـائتي سـنة تقريبا قبل أن تسـتقر الأوضــاع الاجتماعية بفضل جهــود المئــات والآلاف كل في ميدانه من دعــاة إصــلاح اجتمــاعي ومشـرعين ونقــابيين ورجــال سياسة وإدارة وتربية وتعليم وصـحة وكتـاب وصحفيين وفنانين.. الخ، بحيث استقرت أوضاع العمل، وتخلصت من الأشباح والهموم، وارتفعت مستويات معيشة العمال وكفلت لهم الضمانات والحمايـات. وأضـيفت كرامة

على شخصية الفرد رجلا أو امرأة، رئيسا أو مرؤسا وتقررت ورسـخت آداب وانتظمت معاملات أفراد المجتمع بعضهم بعضا، **وعندئذ فحسب بدأت تظهر الابتسامة.**

بل يمكن القول إن هذا كله لم يكن كافيـا، وإن كـان هو الأسـاس، لأنه أتـاح للعامل فرصة للاستمتاع بالحيـاة وقت الفـراغ، وهـذا الاسـتمتاع هو الـذي يمسح عـرق اليـوم، ويذهب بالملل الـذي لابد وأن يزحف على العمل ويـرخي الأعصـاب المتـوترة، ويعطي العامل نفسـية متجـددة، ومن هنا فإننا نجد أن الحيـاة الأوروبية قسـمة ما بين العمل الجاد بالنهـار.. واللهو الممتع بالليل فهـذا الاسـتمتاع هو للنفس ما يكونه النـوم للجسم يجدد أعصابه وينعش عضلاته، ويعوضها عما ذهب به تعب النهار..

وقد يكون عدم تنظيم وسائل اللهو والاستمتاع أمام العمال في المجتمع الإسـلامي من أسباب هذا التوتر والجهامة التي تعلو الوجـوه، أو الملل أو السـلبية.. وكلها لا تـدع مجالا لابتسامة أو لبشاشة.

ودخل الحلبة عامل جديد هو ظهـور "المحجبـات المقطبـات" في مجـال العمـل، وملاحظتنا الخاصة في هذا المجال تظهر نوعا من الاقـتراب ما بين الحجـاب.. وما بين التجهم.. دع عنك الابتسام أو البشاشـة، وتلك نقطة جـديرة بالعناية حـتى لا يسـاء فهم الأمر، أو يكون دعاية سيئة للحجاب نفسه.

وقد ذهب بعض الفقهـاء إلى أن الليل يجب أن يخصص لله تعـالى يقـوم فيه العبد ويتهجد، وهـذا أمر – فيما نعتقد – مما لا يكلف به عامة النـاس لأنه لا يـدخل في إطـار الفرائض، وقد كان الرسول ﷺ يأخذ مصلاه من المسجد ليصلي في غرفته ما يشـاء من تطوع وتهجد، فعبر بذلك عن أن قرباته هي مما لا يكلف بها أو يقوى عليها عامة الناس وأي فـرق أذن يكـون بينهم وهم "القاعـدة" العريضـة.. وبينه وهو القمة الـتي لا مطلع وراءها.. ولا مبلغ بعدها، بل أن الرسول ﷺ أعلنها صـريحة لصـاحبه "سـاعة.. وسـاعة.." وتقبل من أصحابه صنوفا من اللهو بل كـان يـتيح لعائشة الاسـتمتاع ببعض صـور اللهو التي كانت شائعة وقتئذ.. وأخـيرا فيجب أن لا ننسى تلك الإشـارة البليغة من الرسـول **".. وتبسّمك في وجه أخيك صدقة"**.

وبالطبع فإن عامل الاسـتمتاع ليس هو كل شـيء، بل ليس هو العامل الأول، ولكن الإشارة إليه هي لعدم معالجته، والتحرج منه، وليس هناك حرج في الحق، أما العوامل الأخـرى فمنها ما يـدخل في اطمئنـان العامل ورضـاه بما يأخذ من أجـر، أو يلقي من تقـدير أو يطمئن إليه في مسـتقبله كما يـدخل فيه المهـارة وتنظيم العمـل.. وعوامل أخرى عديدة.

وقد لا تكـون الابتسـامة عـاملا هاما في مجـالات العمـل، ولكن لا ريب أنها عامل مـريح، وأنها يمكن أن تحطم جو الغربة ما بين طـرفي أي عمليـة، وأنها خـاتم يتـوج العلاقات الاجتماعية بطـابع النجـاح والاسـتقرار وأنها بعد كل شـيء.. صـدقة.. لا تكلف شيئا.. وتنفذ إلى القلوب مباشرة.. وليس هذا بالشيء القليل.

خاتمـــــــــة
العمل
الوسيلة المثلى اليوم للجهاد فِي سَبِيلِ اللَّهِ

رأينا في الفصل الأول من هذا الكتاب أن العمل هو مصداق الإيمان ومعيـار الثـواب والعقاب، وعالجنا في الفصول التالية جوانب أخـرى لـه، و**نريد أن نختم الموضـوع بـــإبراز حقيقة هامة تلك هي أن العمل بـــالمعنى الشـــامل للكلمة** - أي استدراك التخلف في الصناعة والتجارة والمهارات والعلوم والخدمات وإشـاعة الثقافة والمعرفة التي هي في أصل هذا، ولا غنـاء عنهـا.. **إنه الوسـيلة المثلى والوحيـدة الآن للجهاد فِي سَبِيلِ اللَّهِ.**

وإبراز هذه الحقيقة له أهمية مضاعفة، فبالإضـافة إلى أهميتها الموضـوعية، فهنـاك أهمية أخرى نشـأت عن أن الصـورة الـتي تسـتأثر بالشـباب الإسـلامي وتسـتحوذ على نفوسـهم اليـوم هي صـورة الجهـاد العسـكري.. الـذي يقـوم به جيش كجيش الفتح الإسلامي الأول يحمل دعوة لا إلـه إلا اللـه محمـد رسـول الله إلى النـاس كافـة، فمن استجاب فهم أخوة "لهم ما لنا، وعليهم ما علينا" وإن رفضوا فالجزية يـدفعونها عن يد وهم صاغرون. وإن رفضوا فالقتال الذي يظفر فيه المسلمون بإحدى الحسنيين النصر أو الشهادة.

نقول إن هذه الصورة من الجهاد ليست هي الصورة الوحيدة، وليست هي الصــورة المثلى.

ذلك لأن كلمة الجهاد أعم من كلمة القتال، فكل قتال يمكن أن يكــون جهــادا، ولكن ليس كل جهــاد يمكن أن يكــون قتــالا. لأن اللفظة تعــني المجاهدة مطلقا، سواء كان ذلك بالنفس أو بالمال أو بالعمل أو بالسلاح أو بغير ذلك من الوسائل والأساليب.

من هنا قال النبي ﷺ للرجل الذي جاءه يستأذنه في الجهـاد "أحي والـداك" قـال نعم قـال **"ففيهما فجاهـد"** ورد الرجل الآخر الـذي قـال له "جئت أبايعك على الهجـرة وتـركت أبـوي يبكيـان" وقـال له **"ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهمـا"** وقـال **"أفضل الجهاد من قال كلمة حق عند سلطان جائر"** وجمع بين حمزة - سـيد الشهداء، ومثل هذا الرجل كما جمع في الشهادة بين من قتل في سـبيل الله وبين من مات في سبيل الله، وتحدث عن **"جهاد لا قتال فيه"**. وقـال عمر لرجل تـرك عمله الذي يرتزق منه وسافر إلى المدينة للجهاد **"ارجع فإن عملا بالحق جهاد حسن"**، وروي أنه بعث شـعبان بن مالك سـاعيا بالبصـرة فمكث حينا ثم اسـتأذنه في الجهـاد، فقال عمر **"أولست في جهاد.."**

وهـذا الفهم من الرسـول ﷺ ومن عمر له أساسه من القـرآن، فـالقرآن يشـير إلى **الجهـاد** بما يـوحي **المجاهـدة** عامة ما دامت فِي سَـبِيلِ اللَّهِ، وفي معظم الحـالات اقترن الجهاد بالمال، وقد يقدم القرآن ذلك على الجهاد بالنفس ﴿..وَجَاهِـدُوا بِـأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ و ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِـهِمْ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ﴾ و ﴿لَكِنْ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ الخ...

فكلمة جهاد تعني المجاهدة، أي بـذل الجهد واسـتنفاد الطاقة في أي عمل صـالح سـواء كـان إعالة أسـرة أو ممارسة مهنة أو إنفـاق للمـال في وجـوه مشـروعة أو اتخـاذ موقف من أبـوين يريـدان حمل ابنهما على الشـرك أو حـاكم يريد فرض الظلم على النـاس أو غـير ذلك من مواقف الكفـاح بما في ذلك موقف العاشق المتعفف :

يقولون جاهد يا جميل بغزوة   وأي جهاد غيرهن أريـــد

فهذا العمل.. والإنفاق والتورع من الوقوع في المآثم جهاد وما دام يراد به وجه الله فإنه ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

ومن هنا فإن العمل المحكوم بالإسلام هو في حقيقة الحال جهاد فِي سَبِيلِ اللَّهِ..

ولما كانت كلمة جهـاد تعـني – كما أشـرنا – بـذل الجهد – فـإن العمل الـذي ينطبق عليه وصف الجهاد يجب أن يكون عملا متقنا يستنفد من صـاحبه جهـده ويسـتفرغ منه طاقته.. وليس العمل الرث أو الملفق.

وهذا العمـل.. هـذا الجهـاد فِي سَـبِيلِ اللَّهِ هو المطلـوب الآن بصـورة أساسية، وهو – وليس القتال العسكري – سبيل الإنقاذ.[29]

لماذا...

لأكثر من سـبب. وبدايـة، فـإذا أراد دعـاة القتـال والغـزو أن يكفلـوا لأنفسـهم النصـر، ولبلادهم المنعة فعليهم أن يركـزوا اهتمامـاتهم في إحكـام الصـناعة، وإتقـان المهـارات والتغلغل في أسـرار العلم الحـديث .. باختصـار"العمـل"، لأن هـذا هو سـرّ التفوّق العسـكري. إلاّ أن انتصـار البلـدان الفقـيرة على وجه التحديـد، إنما يحقّقه في المقـام الأول الجهـاد داخل المجتمـع. والصـورة في هـذا العصر للجهـاد الـداخلي تأخذ شـكل التنظيم المنهجي في مجـالات العمل العـام. **إن الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر الـذي قدّمه** القـرآن **في بعض الآيـات حـتى على الإيمـان بالله وإقامة الصـلاة الخ.. إنما يتجلّى في الهيـآت والجمعيـات الـتي يكوّنها المواطنـون بـدافع من إيمـانهم لخدمة مجتمعهم في كل المجـالات.** إن المجتمع الذي يمارس مسؤولياته في جميع ميـادين الحيـاة، بحرية وبكرامـة، يكـون قد أعدّ القاعدة التي يصعب قهرها.

سبب آخر لاستبعاد تلك الصورة الضيقة والخاصة من الجهاد – أي القتال – هي أن **القتال حتى عند الانتصار لا يمكن أن يكفل الإيمـان أو يكسب القلـوب أو يجعل النفوس تتعاطف وتتجـاوب مع العقيـدة.** فهل نحـارب لكي نحصل على إسـلام إجبـاري أو مظهـري أو نضم ناسا يقولـون بـأفواهم ما ليس في قلـوبهم ؟ وما قيمة هذا كله ؟ لقد كان للقتال ضرورة في العصر القديم لأن وسائل الإعلام والاتصال الجماهيري لم تكن متاحة ولم يتجاوب كسرى وقيصر مع الرسائل التي أرسلها النبي ﷺ لهمـا، وحمّلهما فيها مسـئولية ضـلال جماهيرهمـا.. فلم يكن بـدّ من أن يظهر الجيش الإسـلامي بقضه وقضيضـه، فالجهـاد الإسـلامي كـان في حقيقة الحـال الوسـيلة الـتي اقتضتها الظروف وقتئذ لتوصيل الدعوة، كـان الجيش الإسـلامي في حقيقته جيشا من

---

29 **(29) إن استبعادنا للقتال كسبيل للدعوة الإسلامية، لا يعني بالطبع استبعاد القتال دفاعا عن حرية العقيدة، كما كان أيام الرسول "وحتى لا تكون فتنة" ولا دفاعاً عن البلاد إذا هوجمت، أو دفعا عن استقلالها إذا كانت محتلة، فهذا القتال فرض مقدس وواجب على كل رجل وامرأة، وفي جميع الحالات فلابد من أن يكون لكل بلدها جيشها، بل أن يكون أهلها كلهم على جانب كبير من التدريب العسكري ما دمنا نعيش في عصر "الغابة" الأوروبية.**

نـوع جديد لم يكن للبشـرية به عهد من قبـل، كـان جيش دعـاة قبل أن يكـون جيش محاربين – جيش يحمل ﴿الْكِتَابُ﴾ و﴿الْمِـيزَانَ﴾ أكـثر مما يحمل السـيف والسـنان، ولو كان الغرض هو مجرّد القتال، لما كان هناك داع للدعوة إلى الإسلام، وما يعنيه هذا من فقد المغـانم والسـيادة على الأرض. وهـذه الـدعوة إلى الإسـلام ما كـان يمكن أن تأخذ شكلها المباشر إلا بتحـرك الجيش ودعوته الجمـاهير البعيـدة عن مـوطن الـدعوة الإسلامية. ولكن وسائل الإعلام والاتصال اليوم مكفولة، ويمكن أن تصل الجمـاهير في عقر دارها عن طريق الإذاعة والصحافة، وحتى لو كانوا في آخر الدنيا. فلمـاذا لا يـدخر دعاة القتال جهدهم للدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، ويبدأون بها ما دامت الـدعوة مقدمة على القتـال نفسـه، ولا قتـال قبل الـدعوة إلى الإسـلام. إن هـذا على الأقل سيكسب للإسـلام الألـوف، أو حـتى مئـات الألـوف الـذين يسـلمون إيمانا واحتسـابا واقتناعا، ولأن يهدي الله بك رجلا خير لك من الدنيا وما فيها..

سـبب ثـالث : هل من المعقـول أن نحـاول حمل دعـوة الإسـلام إلى بلاد بعيـدة وجماهير جديدة.. وأن نـدع – في الـوقت نفسه جماهيرنا وشـعوبنا تتخبط في ظلمـات الجهالة والفهم السقيم للإسلام ؟ أفليس الأولى أن نبدأ بأنفسنا وأن نصـلح مجتمعنـا.. وهو عمل لا يريد حربا ولا قتالا.. ولكن تعليما وتفهما..

لقد كنا في غنى عن تقـديم هـذه المـبررات، بل ومعالجة تلك النقطة بأسرها – نقطة القتال، لـولا أن معظم قيـادات الـدعوات عجـزت عن أن تقدم للشباب الصورة السليمة للجهاد، وأن تترجم لها النصـوص القديمة إلى لغة العصر. وأن تضع يــدها أولا وقبل كل شــيء على روح الإســلام والقضــايا الجوهرية فيــه، وأن نضع هــذا الجسر لكي يتلاقى عليه فكر الإســلام مع ضــرورات وملابسات العصر. فانحرفت الناشئة الإسلامية، وعادت إلى كلام أئمة وضعوا أفكـارهم منذ عشرة قرون أو فهموا النص القرآني على هواهم أو كما فهمه الخوارج الأولون.

وإذا كـان الجهـاد – كما يقولـون – "فريضة محكمة دائمة لا يبطلها جـور جـائر.. ولا عدل عادل الخ.." وإذا استبعدنا الجهـاد في صـورة قتـال لعقم أو لحماقة ذلك فما هي الصورة التي يأخذها الجهاد وماذا يكون مضمون هذا الجهاد..

لا يخالجنا شك في أن الجهاد فعلا فريضة محكمة دائمة، ولكن بمعـنى الـوعي المتـأجج في النفس برسـالة الإسـلام والالـتزام بتحقيق المثل والقيم الإسلامية من عدالة أو مسـاواة أو تحريـر.. أو كفـاح للخـروج من ظلمـات الجهالة إلى نـور العلم..، وبمعـنى أن تظل في نفس المسـلم دائما وأبدأ فكـرة المجاهـدة للتغلب على العقبـات ولقهر قـوى القصـور والنقص واستنفاد الجهد للوصول إلى الكمال.. وتحقيق العزة والكرامة.

وإذا كـانت مشـكلة المجتمع الإسـلامي اليـوم، الـتي تفـرض عليه الذلة والمهانة والتبعيـة، وتوقفه موقف المسـتجدي، وتجعله فقـيرا ضـعيفا معـوزا في عصر الـثروة والوفرة والقوة.. إذا كانت هذه المشكلة هي – بعد جهله لحقيقة دينه وجوهر إسـلامه، هى التخلف في الصـناعة والمهن والخـدمات والزراعة والتجـارة.. والتخلف في الأداء وما يستوجبه من مهارات وإتقان وإخلاص... أفلا يكون العمل لاستدراك هذا كله جهـادا فِي سَبِيلِ اللَّهِ..؟

وفي التعبيرات المعاصرة يشيع استخدام تعبير "الثورة" كوسيلة للانتهاض والقضـاء بأسـلوب حاسم على هـذه التراكمـات والتعقيـدات والإرث الثقيـل. ويعـزف كثـير من المفكرين الإسلاميين عن تعبير "ثورة" لما تثيره من متداعيات بعيدة عن الإسلام فضلا عن الابتذال الشديد للكلمـة. وفي التعبـيرات الإسـلامية البـديل الأفضل والأمثل مبـني ومعني.. الا وهو الجهاد.. لأن الجهاد الإسلامي بقـدر ما يخلص من المتـداعيات الكريهة

لكلمة "ثورة" الـتي جـاءت بها الممارسـات الوحشـية للثـورات الأوروبية (الفرنسـية – الشيوعية الخ..) والعسـكرية في الـدول العربية بقـدر ما يقـدّم أفضل ما في مضـمون الثــورة، ولم يكن تروتســكي ليجد لثورته الدائمة ما يــداني – فضلا عن أن يســاوي – الجهاد الإسلامي..

وهكذا نصل إلى المضمون الجديد، والحقيقي للجهـاد الإسـلامي اليـوم. إنه العمل – بكل كرامة وقوة ومجاهدة وإصرار لإخراج المجتمع الإسلامي من الظلمـات إلى النـور بإشاعة العلم والمعرفة والتدريب على المهارات.. وتحقيق خطط التنمية (عندما تكون سليمة) وجعل كلمة الله – العدل – أو الحقّ – هي العليا..

بــذلك تنطلق **مسـيرة الجهـاد الإسـلامي** اليـوم كما انطلقت في عهد أبي بكر وعمر.. **تحمل الكتاب والميزان.. فتنشر العلم والمعرفة وما يستتبعه هــذا أو يقوم عليه من صناعة وزراعة وتجارة ومهـارة وخـدمات وتـوزع ثمـرة هذا كله "بالعدل". وهذان هما الحسنيان في العمل الإسلامي : الـوفرة.. والعدالة.. فالوفرة بدون عدالة تُظْهِر الترف والعدالة دون الـوفرة تشـيع الفاقــة، ولكن الجهــاد الإســلامي في صــورة العمــل.. يمكن أن يحقق الوفرة والعدالة.**

وليس هناك من قربى إلى الله.. أفضل من هذا..

شيء أخير نقوله للهيئات والجماعـات الإسـلامية. إن ربط الجهـاد بالعمل هو وحـده الذي سيمكن الدعوة الإسـلامية في الأرض وسـيحول دون أن تكـون – كما تقـول عنها الصحف "التيار الديني" الـذي يمكن أن يُسـتغل أو يُسـتقطب أو يَتبـدد أو يُنسى كما لو كـان من مثاليـات المراهقة أو حركـات الطلبة العـابرة.. أو انبعاثـات المتطـرفين. **إن ربط الجهاد بالعمل سيعمق جذور الدعوة الإسلامية في المجتمع بحيث لا يمكن عزلها أو استقطابها، فضلا عن القضاء عليهـا، وسـيعطيها شـكلها "العملي" بحيث يعسر معه الانحـــراف والســـير مع الأهـــواء والـــنزوات الطارئة..**